التركمان و مصر في عصر برسباى[١]

٨٢٥هـ/ ٨٤١ هـ / ١٤٢٢- ١٤٣٨ م

أ د . عبد الرازق الطنطاوى القرموط

رئيس قسم التاريخ والحضارة

يعتبر برسباى من أقدر سلاطين المماليك الذين حكموا مصر. فقد تولى السلطنة في الثامن من ربيع الآخر سنة ٨٢٥ / ١٤٢٢هـ ولقب بالملك الأشراف ، وكنى بابى النصر وقد أخذ نجمه في الصعود، وأحوال مصر تستقر بعد قضائه على حركات تغرى بردى وطربـاى وجانبك الصوفي ، واستخدم حنكته السياسية مع طالبي النفقة من المماليك فور توليه ، فلم تحدث منهم اضطرابات.[٢]

ويعتبر عصر برسباى هادئا بالنسبة لما قبله وما بعده : فضلا عما امتاز به من أهمية خاصة في التاريخ المصري حربيا وتجاريا ، فقد استطاع ضم جزيرة قبرص إلي أملاك الدولة المصرية: وهى الإضافة الوحيدة التي

---

[١] لفهم الأوضاع السائدة في عصرنا بالعراق وغيره . وأن تعدد الكيانات العرقية مثيرا للمشاكل ، وتحتاج إلي سياسية خاصة . وتعامل متنوع كان هذا البحث لوجود هذه الجماعات حتى وقتنا .

[٢] النجوم الزاهرة : ج ١٤ ص ٣٣٢ .

تمت في عصر السلاطين المماليك ، وهى شهادة على قوة الدولة ونفوذها في عصره.

ولم يعكر صفو أيامه الطويلة _ ١٧ سنة تقريبا _ سوى فرار جانبك الصوفي من سجن الإسكندرية . قد كانت له بصمات طيبة في بداية حكمه ، وأدخلت محبته في قلوب الرعية ، فقد منع الناس كافة من تقبيل الأرض بين يديه ، فامتنعوا عن ذلك [١]. كما أمر بإبطال القدر الذي كان يأخذه ممن يسافر بالأمير المنفصل عن إمرته إذا حبس أو نفي [٢]، وكذلك المناداة بعدم استخدام أحد من أهل الذمة في دواوين السلطان والأمراء[٣] وإطلاق سراح أولاد الأسياد وأولاد السلاطين السابقين من محبسهم في القلعة ، والسماح لهم بسكنى القاهرة ، فقد كانت العادة السائدة في هذا العصر الحبس لهم خوفا من طريان أمر أو المشاركة في الثوارت . كما انه استطاع أن يحكم بثقه واطمئنان لقوة أنصاره ، وضعف أعدائه ونتيجة لذلك عمت السكينة أرجاء الدولة خلال العام والنصف الأول من سلطنته حتى حدثت ضجة هروب جانبك الصوفي . التي اربكته مؤقتا . وكان لها اثرها في سياسته حيث عزل سودون من عبد الرحمن عن نيابة دمشق بعد ثمانى سنوات[٤] خوفا من

---

(١) عقد الجمان : ج ١٩ ل ١٧٩ أ ، نزهة النفوس ج ٣ ص ٦

(٢) أنباء الغمر ج ٣ ص ١٧٠ .

(٣) السلوك ج ٤ ص٦١٠ ، النجوم الزاهرة ج ١٤ ص ٢٤٨ .

(٤) نزهة النفوس ج ٣ ص ٢٣٣ .

طول هذه النيابة . كما القي القبض على تغرى بردى المحمودى فاتح قبرص بعد لعبه الكرة معه، ثم أرسله إلي الإسكندرية للحبس بها.

ولذلك أثر من أثار هروب جانبك الذي لم يستحق كل هذا التوجس الذي لازمه – وان لم يعطل سياسته – حتى سنة ٨٣٩ هـ / ١٤٣٦ م ، حيث ظهر جانبك بآسيا الصغرى ، وان أزعجه ظهوره لمعاضدة شاه رخ له ،والذي كانت علاقته مع سلطان مصر سيئة[١] بسبب إصرار الأول على كسوة الكعبة المشرفة ورفض برسباى تحقيق أمله . وقد قتل جانبك . وقدمت رأسه إلي مصر فأقيمت الزينات لذلك ، ثم علقت الرأس بعد طوافها في شوارع القاهرة على باب زويلة .

- ومع ذلك كله فقد كانت له سياسة خارجية ناجحة مع العديد دول الصداقة . وان كان له موقف متشدد من أعداء دولته جعلت مكانة مصر متميز عالميا. وسوف نوضح علاقته بالإمارات التركمانية .

الإمارات التركمانية :

كانت إمارات التركمان تقيم على حدود دولة المماليك في جنوب شرق آسيا الصغرى ، ومنطقة الجزيرة الفراتية ومنطقة الثغور.

١- حوليات دمشقية لمؤلف مجهول ص ١٥١

• ولما كانت بلاد الشام تعتبر امتدادا طبيعيا لمصر في تلك الفترة ، كما كانت تعتبر منطقة دفاع متقدمة عنها ، وهى كذلك تكمل الدور التجاري العالمي لمصر ، لذلك نالت اهتماما كبيرا من سلاطين المماليك .

وكانت أهم إمارات التركمان ذات الصلة بالمماليك صداقة أو عداء هي:

١. إمارة ذي الغادر : التي قامت أساسا في نواحي البستان ومرعش ثم امتدت في بعض الأحيان إلي ديار بكر مثل خرتبوت و بهسنى وأمد والرها بجانب ملطية و كختا و كركر وأبلستين وقلعة الروم ودارنده .

٢. إمارة بنى رمضان : وتقع في الجنوب الشرقى لآسيا الصغرى ، و شملت منطقة أطنة وسيس وبياس وطرسوس و غيرها ,

٣. إمارة بنى قرمان : و كانت تشمل منطقة لارندة وسيواس وقونية وقرمان ودار بساك وغيرها .

٤. قرة قونيلى أو الشاة السوداء : وكانت تقيم في نواحى ارزنكان وسيواس وبعض أرمنية وبعض اذربيجان.

٥. آق قونيلى أو الشاة البيضاء : الذين استقروا بمُى بعض ديار بكر ، ثم توسعوا حتى ضموا آمد وماردين وأرزن (ارزنجان) والرها وغيرها .

* والجدير بالذكر أن هذه المناطق لم تكن ثابتة ومستقرة دائما ، بل كانت تطرأ عليها التغيرات نتيجة الحروب المستمرة بين هذه القبائل ، وتدخل الدول المجاورة كالمماليك و المغول والعثمانيين في شئونهم .

كما أن ولاءهم لم يكن ثابتا في الغالب متقلبا كذلك حسب الظروف والحروب و التطورات ، ولذلك كان يطلق على الموالين لحكومة مصر تركمان الطاعة، ولهم إقطاعات وامتيازات ، أما الآخرون فكان العداء ، و كانت الحملات المتكررة إما لتهديدهم المدن و هجومهم عليها ، أو لتوسعاتهم في تلك المناطق المتاخمة لحدود المملكة المصرية .

- وسوف نلقى الضوء على علاقة تلك الممالك بالحكومة المصرية حسب تأثيرها على سير الأحداث ، واهتمام برسباى بها.

آق قونيلّى أو الشاة البيضاء :

وأول زعيم لهذه الإمارة هو علاء الدين طور على بك ، ثم ابنه فخر الدين قطلو بك ، ثم عثمان قرا أيلوك . الذي يعتبر المؤسس الحقيقي لهذه الإمارة ، وقد ساعده على ذلك موقفه من تيمورلنك ، وزخفه على بلاد الشام سنة ٨٠٣ هـ / ١٤٠٢م ، فقد انضم إليه ، لذلك جعله تيمورلنك طليعة له في الهجوم و وكافأه بتثبيته على ديار بكر فأصبح حليفا قويا ومستمرا للمغول أو بخاصة

مع شاه رخ ، وبالتالي كان على عداء سافر مع المصريين وكثيرا ما وقعت منه بعض المناوشات.

ففي سنة ٨٠٩ هـ عندما تسلطن جكم بحلب ، خرج عليه قرا أيلوك و قتله ، ولما آل الأمر إلي المؤيد شيخ المحمودى سنة ٨١٥ هـ / ١٤١٢ م ،سار إليه من مصر بنفسه سنة ٨١٨ هـ ١٤١٥م ثم سنة ٨٢١ هـ ١٤١٨ م كما ارسل ابنه إبراهيم إلي تلك المناطق سنة ٨٢٢ هـ / ١٤١٩ م . وقد أحدثت هذه الحملات بلا شك التخريب و التدمير بمناطق التركمان . وكانت أعمالهم العدائية تهدأ أحيانا ، فقد مالأ قرا أيلوك المؤيد شيخ حينما ثار ضده قرا يوسف ، ولكن بعد موت المؤيد وقرا يوسف ، عاد قرا أيلوك وهدد حدود الدولة ، حتى إن الأمير برسباى والى طرابلس قد اشتبك معه في معركة انتصر فيها قرا أيلوك ، وكانت نتيجتها وضع برسباى السلطان الذي نتحدث عنه – في سجن قلعة المرقب.

- لما وصل برسباى إلي سلطنة مصر كما ذكرت ، كان لابد من أخذ ثأره من عثمان قرا أيلوك ، و بخاصة و قد أصبح صاحب الأمر و النهى ، والقوة الرادعة ، وقد دفعه عثمان بتصرفاته غير المنضبطة لسلوك هذا الطريق العدائى السافر بينهما فقد كان يأوى الأمراء المناوئين للسلطان المصرى الخارجين عن طاعته . ولنبد بالوقوف على سير هذه

العلاقات, في ربيع الآخر سنة ٨٢٨ هـ / ١٤٢٥ م ، قدمت رسل من عند قرا أيلوك التركمانى[١] . ولم تحدد المصادر الهدف منها أو ما تحمله من مكاتبات ، وان كانت استطلاعية وبخاصة وبرسباى وقتها كان منشغلا بأمر قبرص كما هو معروف .

- كما استغل قرا أيلوك الخلاف الذي وقع بين التركمان من بنى قرمان و غيرهم سنة ٨٣٠ هـ ١٤٢٧ م في زعزعة الوضع ، وبخاصة وأن العلاقة بين حليفه شاه رخ و برسباى لم تكن على وفاق .

حملة تأديبية :

لما كثر فساد قرا أيلوك في بلاد ملطية و غيرها من البلاد التابعة لسلطان مصر ، كان لابد من تجهيز حملة تأديبية إليه للمحافظة على مكانة الدولة وحدودها ، ففرق برسباى نفقات السفر على أربعة أمراء من

---

[١] عقد الجمان (تحقيق د / عبد الرازق القرموط) ص ٢٥٦ ط الزهراء للأعلام العربى ، نزهة النفوس ج ٣ صـ ١١٩

المقدمين عينهم للسفر[١] . وأعطى لكل واحد منهم ألفى دينـــار كمـا أعطى لكل واحد من أمراء العشرات مائتي دينار ، ولكل مملوك خمسـين دينارا[٢] . ثم فرق عليهم الجمال و الخيام . ونزلوا في ميـدان الريدانيـة استعدادا للسفر في هذه الحملة المهمة التي كان هدفها استعادة البلاد التى استولى عليها قرا ايلوك . والذي أثار حمية السـلطان إليـها أن نـائب خرتبرت استمر لمدة سنة يطلب النجدة لطرد عسكر قرا ايلوك[٣]، ولكـن لم تصله النجدة حتى مات ، وملكها قرا أيلوك.

- وصلت الحملة إلي حلب في شـوال سـنة ٨٣٢ ه / ١٤٢٨م وتوجهت إلي مدينة الرها التى حصنها هابيل بن قرا أيلـوك ، و حصن قلعتها ، واستعد لملاقاة الجيش المصرى ، حيث جمع الكثـير من أهل السواد بها ، بجانب التركمان الرماة الشـجعان البـالغ عددهم ستمائة مقاتل .

اقترب الطرفان ، ونشب القتال بعد أن حاصرت القوات المصريـة والشامية المدينة ، حيث القوا عليها الكثـير مـن السـهام والنشـاب

---

[١] هم اركماس الظاهرى الدوادار الكبير ، وقرقماس حاجب الحجاب، وتغرى برمش ، ويشبك شاد الشراب خاناة . عقد الجمان صـ ٣٦٠ ط الزهراء .

[٢] كان عدد المماليك السلطانية ٣٩٠ مملوكا . وبلغت نفقة الجميع نحو ثلاثين الف دينار . النجوم الزاهرة ج ١٤ صـ ١٦٤ .

(٣) عقد الجمان ص ٣٦٠ ط الزهراء

والحجارة لمنعهم من دخولها فتراجع العسكر إلي خيامهم مؤقتا وبعد الظهر عادوا إلي المدينة وعرضوا الأمان على أهلها فلما لم يجدوا استجابة قاتلوهم بشدة حتى استطاعوا دخول المدينة وانتشروا فى أرجائها يخربون ويدمرون ويأسرون حتى خرجوا عن الحد كما يقول ابن تغرى بردى[1]

ثم في صباح اليوم التإلي ـ السبت ٢١ شوال ٨٣٢ هـ) توجهوا لمحاصرة القلعة التى تحصن بها أعيان البلد و مقاتلتها ، فعرضوا عليهم الأمان فرفضوا , فبدأ التراشق والرمي بالسهام والحجارة والنشاب ، فنصب المصريون المكاحل و المدافع صوب القلعة ، و شرعوا في نقب الأسوار ، واستمر ذلك حتى ضحى يوم الأحد فدب الرعب في قلوب من بالقلعة ، فطلبوا الأمان وتراسلوا في هذا لأمر حتى تم الاتفاق على عدم إيذائهم ، ولا يقتلوهم . و قد نزل هابيل و معه تسعة من اعيان الأمراء حيث تسلمه أركماس الظاهرى ، ثم ركب سودون من عبد الرحمن ـ نائب دمشق ـ ومعه بقية النواب لتسلم القلعة ، فوجدوا المماليك على أبوابها مصرين على اقتحمها ، رافضين لما توصل إليه قادتهم ، و هجموا على القلعة بالفعل و احرقوا و نهبوا ، وقتلوا وأسروا ، وخربوا بطريقة غير مقبولة ، جعلت تقى الدين المقريزى المؤرخ ينتقد

١- النجوم الزاهرة ج ١٤ صـ ١٦٥

بشدة هذا التصرف ، و يحمل برسباى المسئولة فيه[١]. ولكن رد عليه ابن تغرى بردى بأن ما وقع لم يأمر السلطان به ، ولا وقع عن إرادته ،كما ان النواب منعوهم فلم يقدروا على ذلك ، فلا ضير على برسباى من تجهيز الحملة لردع المنشقين المفسدين ، فهذا دأب الملوك السابقين ، وما حدث لا يتحمل برسباى مسئوليته[٢].

وبعد الانتهاء من تخريب قلعة الرها دخلت القوات المصرية متوجهه إلي البيرة حيث أمر السلطان بإقامة قرقماس بها ، وإقامة تغرى بردى في قلعة الروم ، واركماس ويشبك في حلب ، وأن يعود النواب إلي ولاياتهم ، ولكن مع اليقظة و الاستعداد لأى طارئ إذا ما تطور الموقف ونشب القتال واحتاجت إليهم القوات المصرية انضموا إليهم[٣].

- وهذا التصرف من برسباى يدل على حسن سياسته و بصره بالأمور وأنه قد وضع خطته لاستقرار الأمور في هذه المنطقة المضطربة , وتوجيه النواب للاستعداد لتنفيذها عند الطلب . وهكذا تكون القيادة لتحقيق قوة الدولة ، وبسط النفوذ والسلطان بقوة القانون ، و قانون القوة الذي يسود في أى عصر

---

[١] راجع الأحداث وموقف المقريزى منها في السلوك ج ٤ ق ٢ صـ ٨٠٦ – ٨٠٩ ، عقد الجمان صـ ٣٦٢ ط الزهراء

[٢] النجوم الزاهرة ج ١٤ صـ ١٦٧

[٣] عقد الجمان صـ ٣٦٣ ط الزهراء

. وقد ابقى برسباى القوات المصرية في ، حلب لمدة خوفا من ان يهاجمها قرا أيلوك.

وقد أرسل المصريون الأمير هابيل و خمسة عشر نفرا إلي مصر بعد انتهاء موقعة الرها فوصلوها في الخامس والعشرين من ذى الحجة ، ودخلوها من باب النصر أحد أبواب القاهرة حيث شق الموكب طريقة في المدينة ، وهم في أسوأ الأحوال ، ومشهورين ينادى عليهم ، حتى وصلوا القلعة وتمثلوا بين يدى السلطان فأمر بحبسهم في برج القلعة[١] .

- وأمام هذا النصر الذي حققته الحملة ، واستعادتها البلاد التى أخذها هابيل من الأملاك المصرية مثل خرتبرت وغيرها ، ولم يفكر عثمان قرا أيلوك في حرب المماليك في هذا الوقت ، وأرسل إلي السلطان برسباى رسالة في جمادى الأولى سنة ٨٣٣هـ / ١٤٢٩ م يعرض الصلح ، ويسأل الصدقات الشريفة العفو عن ولده هابيل واطلاق سراحه[٢] .

وقد رفض برسباى هذه المطالب نكاية في قرا أيلوك و إحساسه بنشوة النصر التى ثأر بتلك الحملة لهزيمته السابقة.

١- عقد الجمان صـ ٣٦٣ ط الزهراء ، السلوك ج ٤ ق ٢ صـ ٨١٠ ، النجوم الزاهرة ج ١٤ صـ ١٦٨

٢- نزهة النفوس ج ٣ صـ ١١٨٤ ،عقد الجمان صـ ٣٧٤ ط الزهراء ، النجوم الزاهرة ج ١٤ صـ ١٧٢ .

فساد وإفساد :

لقد ظل هابيل بمصر حتى مات في الطاعون سنة ٨٣٣ هـ وهو بسجن القلعة في الثالث عشر من رجب منها[١] . فكان رد فعل أبيه عثمان عنيفا لرفض برسباى إطلاق سراح ابنه ثم موته سجينا غريبا . ولذلك قام بهجوم كبير و فساد عظيم في بلاد السلطان ، فقد أغار على ملطية و ماردين و حلب ، حتى وصل إلي عنتاب ، ونهبها ، وعاث فسادا في هذه المنطقة ، و اعترض طريق القوافل التجارية بتلك الجهات وزاد من خطورة تصرفاته عودة القوات المصرية من حلب و كذلك مساندة شاه رخ له[٢] ، نكاية في برسباى الذي لم تكن علاقته به طيبة بسبب كسوة الكعبة المشرفة التى أشرنا إليها .

لذلك لما وصلت هذه الأخبار إلي مصر أصدر برسباى أوامره إلي جار قطلو اتابك العساكر ، وأقبغا التمرازى ، وتمراز رأس نوبة ، وقرا مراد خجا المقدمين بالتجهز للسفر إلي حلب و إلي ملطية[٣] و أضاف إليهم عدة امراء طبلخانات و عشرات و مماليك . وقد انفق على الجميع نفقة السفر فاستعدوا و خرجوا إلي ميدان الريدانية للتحرك نحو حلب ،

١- أنباء الغمر ج ٣ صـ ٤٥٢ ، السلوك ج ٤ ق ٢ صـ ٨٤٨ .

٢- النجوم الزاهرة ج ١٤ صـ ١٧٨ . أنباء الغمر ج٣ صـ ٤٥٨

٣- كان والي ملطية الأمير قنباى بهلوان قد طلب النجدة لمحاصرة قراايلوك .

وقد وصلت الأنباء إلي برسباى بعودة قرا أيلوك إلي بـــلاده ، بعـــد ان تصدت له القوات الحلبية بقيادة قصروه نائبه بها وقوات دمشـــق الـــتى ارسلها سودون من عبد الرحمن ، فخافها قرا أيلوك ، وعاد إلي بـــلاده ، كما أخبروه أن المصلحة تقتضي عدم ارسال الحملة في هذه السنة لذلـــك استرد السلطان النفقة من المجردين للحملة بعد أن عادوا من سرياقوس[١] ، أو من عكرشه التابعة الآن لشبين القناطر .

- ويبدو ان السلطان لم يرتح لموقف قرا أيلـــــوك ، فقـــد اســـتعد السلطان في ربيع الأول سنة ٨٣٤ هـــ / ١٤٣٠ م للســـفر إلي البلاد الشامية لمحاربة قرا أيلوك ، وأخذ الأمـــراء في الاســـتعداد للسفر للمرة الثانية ، ولكن انتهت هـــذه الســـنة و لم يســـافر السلطان ولا أحد من أمرائه إلي البلاد الشامية . وفي رجب سنة ٨٣٥ هـــ / ١٤٣١ م رسم السلطان بأبطال حركة الســـفر ، فتكلم الناس أن ذلك كان بسبب إشاعة تمرد الأمير سودون مـــن عبد الرحمن ، وليس من أجل قرا أيلوك [٢].
- وقد استمر فساد هذا التركمانى في المناطق التابعة لسلطان مصـــر حتى سنة ٨٣٥ هـــ ، فقد استطاع الأمير نـــاصر الديـــن أمـــير

١- عقد الجمان صـــ ٤٠٠- ٤٠٢ ط الزهراء ، السلوك ج ٤ ق ٢ ص ٨٥٠ ، النجوم الزاهرة ج ١٤ صـــ ١٨٣ .

[٢] النجوم الزاهرة ج ١٤ صـــ ١٨٧ - ١٩١

ماردين الخاضعة لمصر ان يأسر الأمير حمزة بن قرا أيلوك ، صاحب أمد ، وسجنه كرد فعل لتصرفات وهجمات قرأيلوك وفساده ، الا ان هذ الامر لم يستمر طويلا فقد تحرك قرا أيلوك نحو ماردين وحاصرها مدة ، ثم انتصر على اميرها التابع لمصر و عين ابنه حمزة عليها . فلما وصلت هذه الأنباء إلي السلطان صمم على الخروج بنفسه على رأس حملة تأديبية لتأديب قرا أيلوك والحد من فساده ، وتجهز لذلك واخذ الأمراء في التجهز والاستعداد ، حتى فرغ غالب الناس من الاستعداد ولم يبق إلا السفر وإذا بقاصد من قرا أيلوك يصل إلي مصر ومعه مفاتيح قلعة ماردين ، فغير السلطان أمره وفتر عزمه على السفر هذا العام[1] .

- ويبدو أن تصرف قرا أيلوك كان حلا مؤقتا حيث انه فيما بعد وقد فهم نفسية برسباى فامتنع عن مراسلته وعاد إلي فساده في المناطق التابعة لمصر ، هذا في الوقت الذي كان فيه برسباى يشيع أمر السفر بنفسه إلي البلاد الشامية ، وعلّ ذلك يخيف قرا أيلوك ، ويحمله على لزوم الطاعة والانضواء تحت لوائه . ولكن يبدو أن ذلك لم يتحقق وان الفساد مستمر والاستهانة بسلطان مصر مستمرة ، و لذلك كان لزاما على برسباى ان يحقق ما أشاعه من

---

[1] أنباء الغمر ج٣ صـ ٤٧٢ .

مخافة العار والقاله السيئة عنه ، والمحافظة على هيبته ودولته : فإن ميله إلي الصلح ، وطلب قرا أيلوك المواداعة معه لم يتحقق ، ولم تحقق رغبته التى أعلن عنها على مسمع من ابن تغرى بردى فقد قال " لو سألنى قرا أيلوك في الصلح والدخول في طاعتى بمقدار ما ساله للأمير جكم من عوض – نائب حلب – لما مشيت إليه لقتاله ، أو أقل من ذلك لرضيت " وتلك كانت رغبة الامراء خوفا من القتال ، والاستعداد له بالنفقة الكبيرة ولذلك كانوا يثبطون همة السلطان ويطلبون منه التأني والانتظار[1]. وهذا تخاذل غير مقبول من حماة مصر المدافعين عنها التى ما عرفهم المصريون إلاّ على اهبة الاستعداد للزود عنها منذ استقروا فيها باعداد كبيرة من زمن الايوبين المتأخرين .

---

[1] النجوم الزاهرة ج ١٤ صـ ٢٠٢ وحتى انه عين ابن اخته حسن بك بن سالم الدوكرى التركمانى على نيابة البحيرة . نفسه ص ـ ١٩٨

• الاستعداد للحرب :

ولما لم تجد هذه السياسة ولم تثمر ما رجوه ، كان لابد من الاستعداد للسفر الذي اجبر عليه وان يكون الاستعداد مناسبا للهدف منها مناسبا لقوة الخصم الشرس .

ففي جمادى الاخرة سنة ٨٣٦ هـ ١٤٣٢ م ابتدأ الاستعداد الفعلى الذي استغرق وقتا طويلا . ففي الحادى عشر من هذا الشهر[١] انفق في الامراء نفقة السفر حيث حمل إلى الأمير الكبير سودون من عبد الرحمن نفقة ثلاثة الاف دينار ، وإلي كل من امراء الالوف – وهم عشرة – الفا دينار وإلي كل امير من امراء الطبلخانات خمسمائة دينار . وكان هذا بخلاف العادة المتبعة من الانفاق على المماليك السلطانية أولا ، فقد كان يرمى ذلك إلي سهولة استرداد المال من الامراء ان الغى الحملة . ولأن أمله في الصلح لم ينقطع وأنه كان عنده بخل وعدم محبة للسفر من مبدأ أمره إلي أيام السلطنه[٢].

---

[١] السلوك ج ٤ ق٢ صـ ٨٨٨ ، انباء الغمر ج٣ صـ ٤٩٠ ، نزهة النفوس ج ٣ صـ ٢٥٦ ، ثامن عشرفي حوليات دمشقية ص ٥٤ ، وحادى عشرين في النجوم الزاهرة ج ١٤ صـ ٢٠١

[٢] النجوم الزاهرة ج ١٤ صـ ٢٠٢

لذلك لم ييأس من الصلح انفق في حوالي ثلاثة الاف مملوك من المشترين ومماليك الخدمة[١] لكل مملوك صرّة فيها الف درهم وخمسون دهما فضة اشرفية (٢٢ الف فضة أو مائة دينار)[٢] وتم ذلك في سلخ الشهر كما فرق الجمال[٣] على المماليك . وأرسل إلي نائب دمشق ليجمع مالاً بسبب استخدام الرجال لقتال قرأيلوك ، وحدد مبلغها نية عشر ألف دينار تجمع من المدن الصغرى فوزعها القضاة على البلاد كالرملة و القدس ونابلس وحوران والبلقان والغوطة وبعلبك وصيدا وبيروت[٤] .

١- عقد الجمان صـ ٤٢٨ ط الزهراء وعددهم الفان وسبعمائة في السلوك ج ٤ ق٢ صـ ٨٨٨ ، وفي أنباء الغمر ج٣ صـ ٤٩٠ الفا وسبعمائة ، وجعلهم تغرى بردى كثير دون تحديد . النجوم الزاهرة ج ١٤ صـ ٢٠٣

٢- يذكر بن تغرى بردى أن المماليك اتفقوا على عدم اخذ نفقة فلوسا ولم يصدقوا . ج ١٤ ص ٢٠٣ .

٣- عقد الجمان صـ ٤٢٨ ط الزهراء

٤- حوليات دمشق ص ٥٣

التحرك نحو الشام:

وفي يوم السبت الرابع عشر من شهر رجب ٨٣٦ هـ ، مارس ١٤٣٣ م خرجت مدورة السلطان وخيام الامراء من القاهرة ، ونصبت في الريدانية لأجل السفر وفي السادس عشر خرج أمراء الجاليش (الجيش) مقدمة العساكر السلطان ولكى يطمئن السلطان على استقرار الامور اثناء غيبته اصدر مرسوما بأخراج الامراء البطالين من الديار المصرية . ورتب أمور البلاد في غيبته وبعدها توجه السلطان من القلعة – وقد عبأ اطلابه – في الساعة الثالثة من النهار في موكب جليل إلي الغابة ، وقد تجمع الناس لرؤيته حتى نزل بخيمته في الريدانية[1] .

وقد أفاض ابن حجر في ذكر سير السلطان والمنازل ومسافاتها ، والصعوبات التى صاحبته والجبال والوهاد والارتفاعات مما يعطى تحليلا طبوغرافيا على طول الطريق ولم يذكره احد غيره كما كان اين تغرى بردى أكثر وصفا لأحداث الحملة وتحركات السلطان ونزوله خلالها . اما غيرهما من المؤرخين فمنهم من أوجز في البداية وافاض في النهاية ومنهم من توسط في احداث الحملة.

وسوف تعرض لسير الحملة وظروفها واحداثها ونتائجها بطريقة واضحة لقد تحركت الحملة من الريدانية يوم الجمعة العشرين من شهر رجب بعد

١- السلوك ج ٤ ق٢ صـ ٨٨٩

صلاة الجمعة وعلى رأسها السلطان برسباى والخليفة العباسى المعتضد بالله والقضاة الاربعة : شهاب الدين بن حجر الشافعى ، بدر الدين محمود العينى الحنفي ، وشمس الدين البساطى المالكى ، ومحب الدين احمد البغدادى الحنبلى وكاتب السر القاضى كمال الدين محمد البارزى ، وناظر الخاص ابن كاتب جكم وائمة السلطان و نديمه ولى الدين محمد بن قاسم السيسنى . و غيرهم وسار الجاليشن أمام السلطان مرحلة وهم : الأمير الكبير سودون بن عبد الرحمن . و قر قماش حاجب الحجاب ، و أينال الجكمى أمير سلاح وسودن بيق وقنباى الحمزاوى[1] . واستمر السير حسب المنازل على الطريق حتى وصل غزة في غرة شعبان و خوج منها بعد ثلاثة ايام قاصدا دمشق التى وصلها يوم الأثنين الخامس عشر من شعبان . حيث نزل في برزة من غوطة دمشق . و عمل الموكب السلطاني واجتاز دمشق في أبهة السلطنة و شعار المملكة في موكب جليل يحمل القبة و الطير على رأسه الأمير جار قطلو نائب الشام . ولم يترل السلطان بعساكره في المدينة شفقة على أهلها[2] .

بعد أربعة أيام أو خمسة – دخل فيها دمشق غير مرة و طلع إلي قلعتها – ارتحل بأمرائه و عساكره في العشرين من رجب قاصدين حلب

---

[1] عقد الجمان صـ ٤٢٩ ط الزهراء ، النجوم الزاهرة ج ١٤ صـ ٢٠٧ ، حوليات دمشقية ص ٥٨ وما بعدها

٢- النجوم الزاهرة ج ١٤ صـ ٢٠٨

فمر بحمص ثم حماه حيث خرج إليه الأمير جلبان نائبها لملاقاته لعسكرها ، فاقام السلطان بظاهرها ثلاثة ايام فوصل حلب يوم الثلاثاء خامس شهر رمضان ، ونزل في الميدان بظاهرها في المخيمات التى نصبت ودخلها بابهة السلطنة كما دخل دمشق ، وحمل القبة والطير أمير حلب قصروه من تمراز ، وشق المدينة في موكب حافل[١].

إلي آمد :

وقد قام بحلب خمسة عشر يوما . يأمر وينهى ، ويولى ويعزل ، ويركب خلالها إلي داخل المدينة وإلي قلعتها وكان هدفه من اطالة المدة ان يرد إليه قصاد الامير عثمان قرا ايلوك في طلب الصلح فلم يرد عليه أحد ممن يعتمد عليه السلطان على كلامه ، عند ذلك تهيأ للخروج إلي جهة آمد[٢] . وقد حضر إلي السلطان في حلب أكابر أمراء التركمان مثل ابن رمضان وابن قراجا ومن الأمراء العرب[٣] من كلاب جمع كبير حتى بلغ عددهم ما يقارب عشرة الاف[٤] . وقد تحركت العساكر

١- النجوم الزاهرة ج ١٤ صـ ٢٠٩ ط الزهراء ، عقد الجمان صـ ٤٢٩ ط الزهراء، السلوك ج ٤ ق٢ صـ ٨٩١ ، حوليات دمشقية صـ ٦٢ ، انباء الغمر ج٣ صـ ٤٩٤

٢- النجوم الزاهرة ج ١٤ صـ ٢٠٩ ط الزهراء

٣- انباء الغمر ج٣ صـ ٤٩٥

٤- السلوك ج ٤ ق٢ صـ ٨٩٥

الشامية والصفدية والطرابلسية والحموية والغزية قبل السلطان وعمروا جسرا من المراكب على الفرات وحموه من محاولة قرقماس البدوى العاصى حيث ارسل جماعته ليحرقوه ، فقبض علي جماعته – اكثر من عشرين – ثم لحقهم نائب حلب بقواته ، ثم السلطان في ليلة الحادى والعشرين من رمضان حيث نزل في البر الغربي[1] حتى تعبرا لقوات ولما عبرت تحرك للعبور حتى لا يحدث اضطراب عند العبور . ونزل بقلعة البيرة في السادس والعشرين من رمضان و نزلت بقية العساكر على نهر الفرات فرتب أمورها ، وترك بها أشياء كثيرة من الأثقال السلطانية ورحل عنها في اخر رمضان حيث نزل الرها ليلة عيد الفطر فوجدها خأوية من أهلها واصحابها خرابا لم يبق بها الا من عجز عن الحركة . ونزل السلطان بظاهرها من جهة الشرق[2] .

وفي يوم عيد الفطر انشغل السلطان بالتوجه نحو آمد ، بالاسلحة والات الحرب حيث نزل عليها يوم الخميس ثامن شوال ، وقد صف

١- يذكر بن حجر أن عبور السلطان كان قبل العسكر – نفسه ٤٩٦ – انظر النجوم الزاهرة ج ١٤ صـ ٢١٠

٢- دخل ابن تغرى بردى مدينة الرها وطلع إلي قلعتها ، اما القاضى الشافعى ابن حجر فقد خيره السلطان بين الاقامة في البيرة أو حلب ، فاختار صحبة القاضى الحنفي بدر الدين العينى ليتوجها إلي بلدة عينتاب للضيافة فصحبهما أمير وخمسة من الرماة . النجوم الزاهرة ج ١٤ صـ ١٢١١ ، عقد الجمان صـ ٤٣١ ط الزهراء ، انباء الغمر ج٣ صـ ٤٩٦

عساكره عدة صفوف وراءهم الثقل والخدم ، حتى ملأوا الفضاء طـــولا وعرضا وقد هال أُهل آمد ما رأوه من كثرة العســـاكر وتلـــك الهيئـــة المزعجة التى قل أن يجتمع في عساكر الإسلام مثلها من ترادف العســـكر والاطلاب والموسيقات التى تملأ المكان والاعلام والرايات المتنوعة . فوقع الرجيف والخوف في قلوب أهل تلك البلاد وانذهل اهل آمد مما عـــاينوا من الكثرة والتنظيم وعدة االقتال المتنوعة.

الحصار والقتال :

نزل السلطان و العساكر عند آمد ، وحطوا رحالهم . في الفضـــاء حولها صفوفا كثيرة كما ذكرت لمسافات بعيدة كمدد العين علـــى حـــد قول ابن تغرى بردى وصار الرجل من العسكر إذا تكلم مع رفيقـــــه لا يسمع رفيقه كلامه الا بعد جهد كبير لعظم الغوغاء ووقفوا أمام خنـــدق المدينة[١] .

وقد كانت أخبار قرا ايلوك معمية على السلطان وعسكره فلـــم يعرف له خبرا والأقوال في الموقف مختلفة ، فمن قائل بانه متهيأ للقتـــال ، ومن قائل انه متحصن داخل المدينة ، ومن قائل انه تركها وسار بعساكره واسلحته . ثم تأكد الموقف حين نزلوا على المدينة التى لم يكن لها قلعـــة ، وانما لها حصون منيعة وسورها شديد الأحكام والإتقان مما يصعب مـــن

---

[١] النجوم الزاهرة ج ١٤ صـ ٢١٢

حصارها ويبعد أخذها عنوة لأن بدنة السور تحميها بدنة اخرى وهكذا[١] . ولم يرم احد من الداخل بسهم في اليوم الأول الا نادرا ، ولا علا أحد منهم على شرفات البلد الا نادرا ايضا ، وصاروا ينظرون إلي العساكر من الفروج التى بين الشرفات كما أمر السلطان بعدم الرمى على المدينة هذا اليوم ايضا ولكن أوباش القوم تراموا بالسهام قليلا . وكان الغرض من نهى السلطان الوقوف على الاخبار والتأكد من القوات داخل المدينة ليحسن التعامل معها .

وقد علموا ان قرا ايلوك ترك آمد ولكن بعد اغراق الاراضى حولها من ماء دجلة ليعوق تقدم المهاجمين فأحدث بعض الاضطرابات وان لم يمنع المصاف ثم توجه نحو أرقنين التى هى عمدة مملكته [٢]. وترك احد ابنائه بمدينة آمد في قوة كبيرة . فتكلم السلطان في تسليمها قبل الحرب ، وامتنع من بها عن ذلك الا عن أذن قراأيلوك وهو ليس بها.

هذا في الوقت الذي احدق فيه الجنود بالمدينة من جهتها الغربية ، فتزاحفوا نحو الخندق حيث وقع قتال عنيف ، وانشغل البعض بردم الخندق ، وقد اشرف المصريون واعوانهم على اخذ المدينة . ولكن اشتدت المقاومة فصعب الاقتحام .

---

[١] نفسه.

[٢] عقد الجمان صـ ٤٣٠ ط الزهراء

ثم تزاحم الناس وترامـوا بالنشاب والسهام والحجـــارة ، وقتـــل وجرح من الطرفين جماعة منهم مراد بك بن قرا ايلوك ، وحمزة الخـلزندار ، وقبض على جماعة من اهل آمد فقتل البعض ،وترك البعض في حديـد[١] كما جرح من المماليك جماعة.

وبيدو أن السلطان لم يجد الحماس الكافي من هـــذه الجمـــوع الكثيفـــة لأقتحام المدينة فأخذ في مقت المماليك وتوبيخهم ، وصار كلما جـــــرح واحد من العساكره وأتى له به يزدريه ويهزأ به . وينسب القوم للـتراخى في القتال . ثم لبس لباسه الكامل من خوذة وركب واراد اقتحام المدينـــة بنفسه ، فوقف له أعيان امرائه[٢] وحاولوا اثناءه عن هذه الفكرة فـــهو القائد ، وحياته مهمة ، فهو الرمز الذي يلزم المحافظة عليه ، وان المحاولـة ستتكرر وان النصر آت لا ريب فيه أن لم يكن اليوم فغدا ، والدعـــوات بالنصر له تتردد في الجنبات ، وهو يلقى باللائمة على الجند بالتـــهاون في المهمة ومازال به الامراء بشتى الأساليب حتى اثنوه عن رغبته[٣] هـــذا في الوقت الذي سئم فيه الناس القتال وظهرت الجراحات[٤] ، فلما ســـخط

---

[١] السلوك ج ٤ ق٢ صـ ٨٩٥

[٢] تحدث إلي ه قصروه نائب حلب ، ومقبل نائب صفد ، جقمق العلائى لتسكين غضب السلطان . النجوم الزاهرة ج ١٤ صـ ٢١٤

[٣] النجوم الزاهرة ج ١٤ صـ ٢١٤

[٤] كان من ممن جرح تغرى بردى الحمودى، سودون ميق ، تنبك البهلوان وكثير من الخاصكية .

السلطان فتر عزم القوم عن القتال من يومئذ . هذا أمـــر غريـــب لأن القوات التى تجمعت حول آمد بإمكانها اقتحامها بل وعدة مدن أخـــرى مثلها ، ولكن أمر الله ومشيئته أقتضت هذا التخاذل.

ويبدوا أن القتال توقف بضعة ايام ، فقد وجد اهل آمـــد راحـــة بعودة القوم عنهم من شدة القتال ممن لا قبل لهم بقتاله.

وقد اتفق السلطان مع امرائه على نشوب القتال يـــوم الثلاثـــاء كأعنف ما يكون ، وان يتقدم المماليك القرانيص ثم وراءهم الاجـــلاب مماليك السلطان وكانت وجهة نظره لعدم كفاءة خبرة مماليكه الحربيـــة ، ولكن الناس فهموا عكس ذلك . فقد ظنوا ان السلطان يشفق عليـــهم ويريد هلاك سواهم فتنكرت له القلوب . واتفق البعض للوثوب عليـــه عندما تسنح الفرصة[١] . ولذلك تشوش السلطان واضطرب امره لما بلغه هذا الامر ، وندم على سفره ، وفتر عزمه ، وضعف عن تدبير القتـــال . ومع ذلك نصبت المكاحل والمدافع حول المدينة[٢] . واثناء ذلك الحصـــار الذي طال لمدة خمسة وثلاثين يوما. حدثت امور مهمة منها :

---

[١] راجع النجوم الزاهرة ج ١٤ صـــ ٢١٥ ، وكان ممن اتهم بذلك جار قطلو نائب الشام وكربای نائب طرابلس ، ومقبل نائب صفد ، وتغرى بردى الحمودى ، وسودون بيق ، وجانبك الحمزاوى وغيرهم.

[٢] عقد الجمان صـــ ٤٣٢ ط الزهراء ، بدائع الزهور ج ٢ ص ١٤٨

١- حضر إلي السلطان الامير دولات شاه الكردى صاحب آكل من ديار بكر فاكرمه السلطان وخلع عليه وانزل في العسكر[١] .

٢- وفد إليه الاشرف احمد بن الملك العادل الايوبى صاحب حصن كيفا لما بلغه وصول السلطان فخرج في قليل من عسكره في أوائل ذى القعدة ، وقد اعترض مسيره جماعة من اعوان قراايلوك على حين غفلة ، اثناء نزوله لصلاة العصر قتل بسهم اصابه ، ونهب من وما كان معه ، وقدم جماعة منهم على الملك الاشراف برسباى وعرفوه بقتل الاشرف صاحب كيفا فعظم عليه ذلك . وندب جماعة كبيرة من التركمان والعرب من عسكره لتتبع القتله ، فوافوه بنحو عشرين نفسا من قرا ايلوك فأمر بقيدهم ،كما وافوه بجماعة اخرى حوإلي ثلاثين فردا منهم قرا محمد أحد أعيان أمراء قرا ايلوك ، وهدده ان لم يسلم المدينة بالقتل ، فما كان من المغلوب على امره إلا السير تحت الأسوار والدعوة للتسليم ولكنه لم يلتفت إليه احد ، فوسط عشرين هو

١- السلوك ج ٤ ق٢ صـ ٨٩٧ ، النجوم الزاهرة ج ١٤ صـ ٢٢٠ ، حوليات دمشقية ص ٦٩ .وفي بدائع الزهور نحو أربعين يوما . ج٢ ص ١٤٩ .

احدهم[١]. ثم تولى ابن الاشرف مكانه ويدعى خليل الذي ارسل إلي السلطان تقدمه مع اخيه يحيى .

٣- بلغ السلطان ان قرا يلوك قد نزل من قلعة ارقنين بجامعة من عساكره يريد الهجوم على السلطان في الليل ثم التوجه إلي حلب ، فندب السلطان جماعة من الامراء والمماليك لعمل الحرس بالنوبة في كل ليلة لحفظ العساكر ، ، ثم ندب جماعة للتوجه إلي ارقنين لحرب قرايلوك فهزم المقدمة ، وانتصر البعض فاضطر قرايلوك للتحصن بالقلعة ، وقد نهبت عساكره ، وعاد الجمع إلي الوطاق[٢] .

٤- المعروف ان الجيش وامراءه كان بحاجة إلي المؤونة ، فأخذ التركمان والعربان يعبثون وينهبون القرى لاطعام العساكر وخيولهم وصارت الغلمان تخرج من الوطاق إلي جهات أمد وتحصد الزرع وتأتى به للأجناد ، حتى صار امام كل خيمة جندى جرن من الزرع . وهذا التصرف ادى إلي تدبير علوفة الخيل وطعام العسكر طول مدة الاقامة وقد نزل محمودبن قرا

---

(١) النجوم الزاهرة ج ١٤ صـ ٢١٨

(٢) نزهة النفوس ج ٣ صـ ٢٦١ ، النجوم الزاهرة ج ١٤ صـ ٢١٨ ٢١٩ وكان بن تغرى بردى مع هذه المجموعة كما يفهم من كلامه . انظر انباء الغمر ج٣ صـ ٤٩٧ .

ايلوك في عسكر على جبل مشرف على العسكر[١] وصار يقتل من خرج من غلمان ونحوهم لأخذ القمح ونحوه ، ومنع المـــيرة عن العسكر ويبدو انهم تصدوا له .

الصلح وعودة الحملة :

كل هذا والسلطان مجتهد في عمارة القلعة من الخشب تجاه ابـواج أمد ، مكاحل النفط ترمى في كل يوم بالمدافع ، والمجانيق منصوبة يرمـــى بها ، وأهل آمد في أسوأ ما يكون من الحال . ومـــع ذلـك لم يلتفـت السلطان لحصار قوى محكم على المدينة لشغل خاطره من جهة اختـــلاف العساكر ، وحتى ان جار قطلو نائب دمشق لم يحارب بالفعل مع الذيـــن ارسلهم نحو قرايلوك كما في رقم ٣ ، وانشغل بسقى خيوله من الفـوات ولم يلتفت للقتال[٢] . ويبدو أثر هجوم الاجلاب السابق عليـــه في بيتـــه كان له دور في هذا الفتور والتأمر فقد تورط السلطان في حصار أمـــد وصار بين نارين ، وطالت اقامته حتى بدأت بوادر انفراج الازمة للطرفين فقد ضاق الحال على اهل آمد مما اضطر معه قرايلوك إلي طلب الصلـح ، حيث ارسل قرا أحمد ابن عمه وكاتب سره إلي نواب الشـــام لأتمـام الصلح ، ومازالوا بالسلطان حتى وافق عليه وبعث إليه شرف الدين ابـــا

١- السلوك ج ٤ ق٢ صـ ٨٩٥

٢- النجوم الزاهرة ج ١٤ صـ ٨٢٠

بكر الاشقر نائب كاتب السر ، وحمى ابن تغرى بردى الذي ارسل معه بعض مماليك والده ومع الاشقر كتاب الصلح ، وخلعة تتكون من كاملية مخمل بسمور وفوقانى كمخا بطراز عريض زركش . وفرس خاص بسرج ذهب وكنبوش زركش[١] .

فلما بلغ قراايلوك مجئ القاضى شرف الدين نزل من قلعة ارقين وسلم عليه ثم قبل الارض ، فألبسه القاضى الخلعة ، ثم سلمه الأوجاقى الفرس فأمره القاضى بتقبيل حافره فامتنع قليلا ثم فعل ، ثم تحدث معه حديثا ذكره ابن تغرى بردى[٢] .

وكانت بنود الصلح أن يقبل الارض للسلطان ، ويخطب باسمه في البلاد ، ويضرب السكة على الدينار والدرهم باسمه ، والا يتعرض إلي شئ من اطراف المملكة من الرحبة وإلي دوركى . وان يسهل طرق الحجاج وانتجار من المسافرين ولا يتعرض لحصن كيفا ولا لرعيتها وحكامها ، ولا لدولات حاكم آكل وقلاعه ، وان يمتثل ما يرد عليه من مراسيم السلطان .

١- عقد الجمان صـ ٤٣٢ ط الزهراء اضاف بن تغرى بردى الفوقانى بوجهين احمر واخضر . النجوم الزاهرة ج ١٤ صـ ٢٢٠

٢- يروى انه قال: والله ان هذه عادة تعيسة ، ثم قال القاضى ، وأنا من اين والسلطان من اين ؟ انا رجل تركمانى في جهة من جهات . ثم اضاف مبينا وجهة نظره في استعدادات برسباى بانه كان يكفيه بعض نواب السلطان ، وماذا يفعل السلطان لو اخذ أمد وكل شئ . النجوم الزاهرة ج ١٤ صـ ٢٢٤ ، عقد الجمان صـ ٤٣٣ ط الزهراء

ولما نفذ ذلك ووافق عليه وعظه الشيخ القاضى بعـــدم مخالفـــة السلطان وبين له سوء العاقبة عاد شرف الدين إلي السلطان الذي ســـر قليلا بذلك ، وعظم سرور من حضر من القـــوم ، و معظـــم الســـرور بعـ هم إلي بلادهم وأوطانهم سالمين مما ها لهم من مشقة . وقد اعتـادوا الترف والامن وقلة القتال .

وفي الحال أخذ السلطان يستعد للرحيل الذي حدث ليلة الخميس الثالث عشر من ذى القعدة – في النصف الثانى من الليل – مـــن غـــير ترتيب ولا تطليب – جعل العسكر اطلاب اى جماعات – ولا حتى تعبئـة ، ورحلت العساكر من أمد كالمهزومين لا يلوى احد على احد للأســف . لقد رحل الناس على هذه الهئية مسرعين ، خوفـــا مـــن ان يتركـــهم السلطان لمصير مجهول وذلك ان السلطان قد ترك المكان قبل ان يتحـرك نصف العسكر ولذلك تفرقوا في الطريق وتعرضوا لمشاكل وصعوبـــات كثيرة حتى السلطان نفسه الذي سلك الطريق الأوسط لم يســـلم منـــها فالطريق عسر للغاية فهو كالمفازة ، كما تعرض بعض من معـــه لخطـــر تخطف السباع هذا بجانب الخوف من مباغته قراايلوك لقربه من ارقنـــين قرابة مقدار نصف بريد تخمينا[1].

---

[1] النجوم الزاهرة ج ١٤ صـ ٢٢٢ . والبريد أربعة فراسخ والفرسخ ثلاثة اميال . وقد تمزقت العساكر في طرقات متعددة ، لا تعرف طائفة خبرا عن الأخرى لبعد المسافة بينهم ، فطريق سودون بن عبد الرحمن المريض ومن معه كان طريق ماردين الرها ومعه طائفة=

ولذلك عندما نزل السلطان امر بتشديد الحراسة حوله خوفا لقلة عساكره واسند هذه المهمة للأمير جقمق العلائى – امير اخوركبير – فقام وجماعته بهذه المهمة حتى الصباح.

ثم توجه السلطان صباح الجمعة إلي الرها واقام بها مدة حتى وصل بقية العسكر ، ثم اخذ في اصلاح امرها وعرض نيابتها على الامير اينال العلائى – نائب غزة– أو السلطان فيما بعد فاعتذر بطريقة غير مقبولة فطلب الامير قراجا الاشرفي شاد الشرابخاناة و خلع عليه باستقراره في نيابتها ، وخلع على القاضى شرف الدين نائب كاتب السر باستقرار كاتب سر الرها ، وخرجا بالخلع على كره[1].

ولكن سرعان ما اعتذر اينال عن تصرفه بعد نصيحة اصحابه له ، وعلل ان سبب امتناعه خراب الرها ، وليس بها ما يعتمد عليه، فقبل السلطان اعتذاره ، وخلع عليه النيابة ، وامر الامراء بترك ما معهم من المؤنة لإينال فاجتمع من ذلك الشئ الكثير كما أنعم عليه السلطان

=كبيرة من العسكر السلطانى وطريق جماعة أخرى كان طريق التوجه للجيش نحو آمد أى طريق العودة هو طريق الوصول .

[1] النجوم الزاهرة ج ١٤ صـ ٢٢٣ . . الذي يذكر ان اينال فحسن في الرد وخاشن السلطان في اللفظ ، فغضب السلطان عليه وهو بالايقاع به ، ولكنه خشى عاقبة ذلك من معظم شوكة اينال ، وتأثيره على امراء السلطان ومماليكه.

بأشياء كثيرة واصلح امره ، وقد دفع له مبلغ خمسة الاف دينار[١] . واستعفي كاتب السر شرف الدين . فقبل منه بعد ان دفع خمسمائة دينار للخزانة الشريفة .

وبعد هذه الاجراء . وتجمع فلول العساكر غادر الرها إلي البيرة التى انتظر بها حتى عبرت عساكره الجسر على الفرات ثم تحرك حتى وصل حلب في الخامس عشر من ذى القعدة ونزل بنفس مكانه بظاهر المدينة مدة عشرة ايام حتى يستريح عسكره من المعاناة الرهيبة ، ثم امر النواب التوجه إلي محل نياباتهم ، ونظم الامور وتفقد المدينة والقلعة ثم رحل إلي جهة دمشق فدخلها يوم الخميس تاسع عشر ذى الحجة ونزل بقلعتها ، ونزلت عساكره بالمدينة ومكث بها مدة ، ثم خلع على النواب وتحرك نحو القاهرة فوصلها في يوم الاحد العشرين من محرم ٨٣٧ هـ (سبتمبر ١٤٢٣ م) حيث دخل من باب النصر في موكب جليل بابهة الملك وشعار السلطنة ، وعلى راسه القبة والطير حملها سودون من عبد الرحمن وهو مريض .

وقد شق السلطان بموكبه القاهرة التى تزينت لاستقباله (من ١٢ محرم) احسن زينتها ، وسار حتى نزل بمدرسته بخط العنبرانيين من القلهرة ، فصلى لله ركعتين ، ثم ركب من باب زويلة حتى طلع القلعة ، وقد

---

[١] السلوك ج ٤ ق٢ صـ ٨٩٨ ، حوليات دمشقية ص ٦٩ ، عقد الجمان صـ ٤٣٢ ط الزهراء

فرشت له شقق حرير واستقبله الجمالي يوسف (ولده) بالخانقاه وعـــاد معه. وكان لقدومه يوم مشهود ، وسر الناس بسلامته ، وخلـــع علـــى أرباب الدولة [١].

وقفه مع الحملة:

وإذا كنا قد وقفنا على تفضيل الحملة من بداية تحركـــها حـــتى عودتها ، والاحتفال غير المتناسب مع ما حققته الحملة ، فإننا نحاول تحليل هذه الحملة ليتبين لنا مواطن القصور التى أدت إلي هذه النهايـــة غـــير المتوقعة ـــ فقد كنا تأمل معها ان تكون كحملات المؤيد شيخ المؤثرة ضد التركمان ، أو تقتحم المدينة على الأقل أو حتى تتعامل مع قرا ايلـــوك في قلعة ارقنين بحسم اكثر من مجرد ارسال المثبطين . ولكن لم يحدق شئ مـــن ذلك وانتهى الأمر بصلح باهت لم يحافظ عليه قرا ايلـــوك بعـــد عـــودة القوات المحاصرة كما سترى بعد قليل .

لم يكن ما حدث في آمد متناسبا مع الاستعدادات الكبيرة ، و الأعـــداد الكثيرة[٢] ، فقد كانت تنقص هذه الجموع الحماسة و الحمية أو الـــروح

---

[١] عقد الجمان صـــ ٤٣٣ ط الزهراء ،السلوك ج ٤ ق٢ صـــ ٩٠٤ ، نزهة النفوس ج ٣ صـــ ٢٧٢ ، النجوم الزاهرة ج ١٤ صـــ ٢٢٦ حوليات دمشقية ص ٨٠

[٢] بجانب القوات المصرية كانت القوات الدمشقية والحلبية والصفدية والغزية وعشرة الاف من الاعراب وغيرهم

القتالية التى تتضاءل أمامها الصعوبات والمعوقات ، وكفي بهـذا عـاملا للتخاذل والانهزامية الذي اصاب القوات المتجمعة حول امد. هذا بجانب قوة اسوار المدينة وحصانتها وشجاعة المدافعين عنها ، التى حـالت دون تحقيق هذه الزحوف غير المتحمسة لاقتحامها . وربما كـانت الظـروف المناخية عاملا مساعدا في النتيجة السلبية ، فالحر شديد ، والذباب كثـير والجثث متعفنة وهذا الجو ادخل الملل وانسأم إلي نفوس الجموع الـتى لم تستطع التأقلم معها.

كما أن الاقوات كانت قليلة لطول مدة الحصار (٣٥ يوما) وكذلـك علف البهائم والخيول حتى ضج العسكر من هذا الموقف ورددوا :

في آمد رأينا العونة　　في كل خيمـة مرجونـة

الغـلام نمار ويطحن　　والجندى يجيـب المونـة[١]

وقد اشرنا إلي انشغال الكثير من الناس باحضار ما يحتاج إليـه الجيش حتى لقد تجمع امام كل خمية كومة من الغلال وقشها ، ولا نشغال بالطحن وخلافه ، ومع الضجر بين القوات المحاصرة ، فقد كان لإتـلاف زروعات الناس تأثيرها السلبى كذلك[٢] ناهيك عن الغـلاء وارتفـاع الاسعار[٣] . ثم كان التأمر ضد السلطان نتيجة ازدرائه لهـم في بدايـة

---

(١) بدائع الزهور ج ٢ صـ ١٤٨

(٢) السلوك ج ٤ ق٢ صـ ٨٩٨

(٣) السلوك ج ٤ ق٢ صـ ٨٩٧

حصار آمد حتى " قامت قيامة القوم ، وتنكرت القلوب على السلطان في الباطن وتطاولت اعناق امرائه إلي الوثوب عليه ، واتفق كثير منهم على ذلك"[١] .

لكل هذه العوامل مع سوء حظ السلطان في خروجه ، فسعده لا يعمل الا وهو في القلعة وحيثما تحرك بنفسه بطل سعده[٢] . وان كان تصريف الامور وتدبيرها بيد الله .

وكذلك تشاؤمه من قتل الملك الاشرف احمد صاحب حصن كيفا حتى انه اخذ في اسباب الرحيل عن أمد غير انه صار يترقب حركة يرحل بها تكون لرحيله مندوحة[٣] فالروح الانهزامية للسلطان ولقادته وجنوده بجانب الظروف التى اشرت إليها كانت هذه النتيجة الباهتة التى كانت فض مجالس.

ولنزيد الامر وضوحا نستأنس بأراء المؤرخين المعاصرين الذين اشتركوا في الخروج مع الحملة والذين لم ترضهم النتيجة ، فتحسروا على الاموال الباهظة التى انفقت على الحملة ، والاثار السلبية التى ارتبطت بمسيرها واقمتهما في حصار آمد وعودتها . فقد عاد السلطان إلي مصر بعد ان أتلف في هذه السفرة خمسمائة الف دينار من النقد وتلف من السلاح

---

(١) النجوم الزاهرة ج ١٤ صـ ٢١٥

(٢) نفسه ص ٢٢٦

(٣) نفسه ٢١٧

والمتاع والخيل والجمال والبغال مثل ذلك ، وأنفق الامراء بمصر والشلم والعساكر المصرية والشامية مثل ذلك وتلف لأهل آمد وما حولها من الغلال والزراعات شئ كثير إلي الغاية وقتل ايضا خلائق . ومع هذا كله كانت سفره كثيره الضرر قليلة النفع ... ولم ينل احد من هذه السفرة غرضا من الاغراض ولا سكنت فتنة ، ولا قامت حرمة ، ولا ارتدع عدو[١]. ولو اقام بمصر وارسل تجريدة ثقيلة مع الامراء والعسكر لكان عين الصواب .

عودة التمرد ونتيجته :

وإذا كان قد تم هذا الصلح الهش فإن فيه دلالة على حسن سياسة قرا ايلوك الذي ادرك المشقة التى تكتنف اهل أمد وربما تسقط في ايدى القوات المحاصرة وكذلك صعوبة موقفه فطلب عقد صلح ولذلك اعجب به ابن تغرى بردى لسياسته وقال " علمت حال قراايلوك وهمته ، فإنه لو كان فيه بقية ما ترك عساكرنا في تلك الليلة بخير[٢] ... فقد بلغه ما وقع

---

(١) السلوك ج ٤ ق٢ صـ ٨٩٨ ، النجوم الزاهرة ج ١٤ صـ ٢٢٦ ، انباء الغمر ج٣ صـ ٤٩٨ ، نزهة النفوس ج ٣ صـ ٢٦٦ ، حوليات دمشقية ص ٧٠ – مصر في دوله الجراكسة ١٢٣ .

(٢) الليلة التى باتها السلطان قرب ارقنين في قله من عسكره حين سار على طريق قبل قرا ضانح اثناء الاسراع بالعودة

لعساكرنا من الشتات والتفرق[١] وعلم بجميع ما نحن فيه لقرب المسافة بيننا ، وما ترك الايقاع بنا الا عجزا وجبنا وضعفا" ويضيف ايضا ما يوضح موقف اهل أمد وما اصابهم من طول الحصار فلو كان منهم قوة بعد ما عاينوا ما وقع لعسكرنا عند الرحيل ... لاستولوا على جماعة من العسكر.

ولذلك لما عادت القوات السلطانية و اطمأن قراايلوك لوضعه عاد إلي افعاله الشنيعة من نهب وقطع الأشجار[٢] . فلما وصلت الأنباء إلي السلطان ادرك خطورة الموقف وان حملته لم تؤت ثمارها . فعزم على الاستعداد للعودة إلي أمد ولذلك يذكر بعض المؤرخين انه في خامس عشر من ربيع الأول نصب المدفع الذي اعد للحصار آمَد وهو مكحلة من نحاس زنتها مائة وعشرون قنطار مصريا ، وكان نصبها فيما بين باب القرافة وباب الدرفيل فرمت إلي جهة الجبل بعدة احجار ، منها ما زنته خمس مائة وسبعون رطلا . وقد جلس السلطان بأعلى سور القلعة لمشاهدة ذلك واجتمع الناس واستمر الرمى عدة ايام .

وفي شهر رمضان ٨٣٧ هـ اغارت القوات التركمانية على الرها فتصدى لها اميرها اينال العلائى وحدثت بين الطرفين وقعة هائلة قتل فيها عدد من الفريقين فلما بلغ السلطان هذه الاخبار شق عليه ،

١- النجوم الزاهرة ج ١٤ صـ ٢٢٣

٢- بدائع الزهور ج ٢ صـ ١٥٠

وعزم على السفر ثم كتب إلي سائر البلاد الشامية بالاستعداد للتوجه نحو دمشق عند نائبها الجديد قرقماس الشعباني ، ثم توجه الجميع نحو الرها لحمايتها من خطر قرايلوك . ثم بطل ذلك ، وامرهم بالاستعاد عند نزول قرايلوك على الرها بعساكره والافلا[١] .

واشيع في شوال بين الناس سفرا السلطان إلي أمد ، وانه كتب لسائر النواب بتعبئة الاقامات لسفر السلطان والعلافات للخيول[٢] . ولم يتم خروج السلطان لذلك .

وفي رابع المحرم ٨٣٨ هـ وصل رسول الأمير عثمان بن قرايلوك ، وصحبته كتابه وتسعة اكاديش تقدمة للسلطان ، ودراهم مسكوكة باسم السلطان[٣] .

ولم يكن ذلك كافيا لاعلان الولاء والخضوع لبرسباى الذي اظنه لم ينخدع بها ، لأن الاخبار وصلت إلي السلطان في جمادى الآخرة بنزول قرايلوك بعساكره على الرها وبعضها بقيادة ولده الذى وصل إلي ملطية واغار على دروكى فنهب شئيا كثيرا[٤] . لذلك شرع في الاستعداد

---

[١] راجع النجوم الزاهرة ج ١٤ صـ ٢٣٣ ، السلوك ج ٤ ق٢ صـ ٩١٥ ، نزهة النفوس ج ٣ صـ ٢٨٦

٢- نزهة النفوس ج ٣ صـ ٢٨٨ ، بدائع الزهور ج ٢ صـ ١٥٧ ، حوليات دمشقية ص ١٠٨

٣- السلوك ج ٤ ق٢ صـ ٩٢٦ ، نزهة النفوس ج ٣ صـ ٢٩٩

٤- نزهة النفوس ج ٣ صـ ٣١١ ، بدائع الزهور ج ٢ صـ ١٦١

للسفر لقتال قراايلوك والفحص ايضا عن جانبك الصـــوفي[١] ولم يتـــم ذلك.

وهكذا ظل الفساد قرأيلوك وغاراته المتكررة على بلاد الســلطان وربما كان متشجعا بموقف شاه رخ الضاغط على سلطان مصر ، وتكــرر معه الاستعداد للخروج فقط دون نية حاسمة ، وقد مثل ذلك للســـلطان قلقا مستمرا على مدى سنتين .

وشاءت ارادة الله ان تريح برسباى من خطر هذا القراايلوك بقتله على يد اسكندر بن يوسف التركمانى صاحب بغداد , فيذكر المؤرخــون ان اسكندر هذا زحف من تبريز لقتاله ، ونزل بالقرب من ارزن الــروم – أرضروم – حيث وقع بين الطرفين قتال عنيف ظهر في أوله قراايلــوك الذي ثبت في المعركة ، ولكن سرعان ما تغير الوضع وهجــم اســكندر بقوة على عسكر قراايلوك فهزمهم ، وقصد قراايلوك الهرب إلي مدينــة ارزن الروم ، فتبعت قوات اسكندر ، فالقى بنفسه في خنـــدق المدينــة لينجو بنفسه وخوفا من ان يأسره اسكندر فوقع على حجر شجه ثم رفــع بأحبال من على سور المدينة حيث مات بها[٢] ودفنه ابنـــاؤه . ومــازال

١- النجوم الزاهرة ج ١٤ صـ ٢٤٠

٢- قيل انه مات و قد قارب المائة سنة و حكم نيفا وخمسين سنة.

اسكندر يفتش[١] عن قبره حتى عثر عليه فأخرجه وحزّ راسه وارسل بها مع عده روؤس اخرى إلي برسباى سلطان مصر .

وقد وصل قاصد اسكندر بن قرا يوسف في سابع عشر ربيع الآخر صحبة الامير شاهين الايد كارى برأس عثمان بن قراايلوك والروؤس الأخرى ، وكان السلطان قد توجه للفسحة والرماية بجوارح الطير على الكراكى . فقدم من الغد – يوم الخميس ١٨) فطيف بالروؤس الستة على رماح . وقد زينت القاهرة لذلك ، فرحا بقتل قراايلوك ، ثم علقت على باب زويلة ثلاثة ايام ودفنت[٢] .

وبموت قراايلوك تفرق أولاده وانكسرت شوكتهم ، حتى ان بعضهم دخل في طاعة السلطان برسباى ، فارسل له تقليد أمد وخلعة . فاصحى تابعا لمصر حسب العرف السائد . ولكن اخاه حمزة امير ملردين وارزنكان وارزن الروم هاجمه واستولى على أمد وملكها منه . فقلق السلطان لذلك وتحفز للخروج على رأس حملة لتأديب حمزة ، وكتب

١- رأس ولديه وثلاثة رؤوس أخرى من امرائه . النجوم الزاهرة ج ١٤ صـ ٢٥٤ . ويذكر ابن اياس ان عدد الرؤوس التى قدمت ثلاثين راسا ، بدائع الزهور ج ٢ صـ ١٦٦

٢- السلوك ج ٤ ق٢ صـ ٩٦٣ . النجوم الزاهرة ج ١٤ صـ ٢٥٤ ط الزهراء ، عقد الجمان صـ ٤٦٧ ط الزهراء ، حوليات دمشقية ص ١٤٤ ، البدر الطالع للشوكانى ج ٢ ص ٤١٣ –٤١٤ ،انباء الغمر ج٣ صـ ٥٤٤ .

بتجهيز الاقامات بالشام ثم بطل ذلك بعد ايام[١] فاستفحل امر حمـــزة . وامتد سلطانه في اكثر نواحي ديار بكر وغيرها[٢] .

ولما التجأ جانبك الصوفي إلي اخويه محمد ومحمود بعد مفارقتـــه لأولاد دلغادر طلب حمزة بان يرسلاه إليه في الحال مكرما مبجلا ، وذلك ليخوّف به الملك الأشراف كلما سنحت الفرصة ، ولكنهما قتلاه لأغـراء نائب خلب تغرى برمش لهما[٣] فحقد عليهما حمزة لهـــذا التصـــرف ، واستدعى اخاه محمد ليوليه بعض البلاد فانخدع له محمد ومال ومـــا ان وصل إلى بلاد اخيه حمزة حتى قبض عليه وقتل في الحال انتقامـــا لمقتـــل جانبك ، وجزاء الباغى من جنس عمله[٤] .

ولما وصلت السلطان انباء الاضطراب عنـــد الحـــدود المصريـــة الشمالية والشرقية من شاه رخ وناصر الدين محمد بن دلغادر . وحمـــزة بن قراايلوك ووجد ان ظروفه الصحية لا تساعده على الخروج على رأس حملة جديدة / رسم في السابع من رجب سنة ٨٤١ هـــ بخروج تجريـــدة

---

(١) النجوم الزاهرة ج ١٤ صـــ ٢٢٧ ط الزهراء ، السلوك ج ٤ ق٢ صـــ ١٠٢٥

(١) السلوك ج ٤ ق٢ صـــ ١٠١٠

(٣) أرسلا برأسه اليه ، فحصلا على خمسة الاف دينار . السلوك ج ٤ ص ١٠٢٣ـ ١٠٢٤ .

(٤) نفسه ص ١٠٣٠ ، النجوم الزاهرة ج ١٤ صـــ ٢٧٣

كبيرة كتلك التى خرجت أواخر ٨٣٩ هـ لتتبع جانبك الصوفي وناصر الدين محمد بن قرمان.

وقد عين لهذه الجريده ثمانية من الامراء المقدمين : قرقماس الشعبانى أمير سلاح واقبغا التمرازى امير مجلس ، واركماس الظاهرى الدودار ، وتمراز الدقماقى رأس نوبة النوّب ، ويشيك حاجب الحجاب وجاثم امبرآخور وخبماسودون وقراجا الأشرافى . وحمل لكل امير الفا دينار اشرفية ، وكان ذلك في رجب فاستعدوا وخرجوا في شعبان دون ان يرافقهم احد من المماليك السلطانية وكتب إلي نائب الشام الامير اينال الجكمى بأن يتوجه بمن معه صحبة الامراء إلي حلب[1] .

ولما وصلت التجريدة إلي حلب ارسل قائدها قرقماس الشعبانى إلي حمزة يدعوة للدخول في الطاعة والاعتراف بالسيادة المصرية فخاف حمزة واثر السلامة ، فاجاب بالسمع والطاعة لتغيّر الظروف . ولكى يبرهن على صدقه أقام الخطبة على منابر بلاده للسلطان برسباى ، وضرب النقود باسمه وجهز جزءاً منها ارسله مع هدية إلي مصر ، فلم يصل رسوله مراد بك الا بعد موت برسباى . فاستقبله العزيز يوسف

---

[1] السلوك ج ٤ ق٢ صـ ١٠٣٠ ، النجوم الزاهرة ج ١٤ صـ ٢٧٠ ، ويذكر بن إلي اس ان السلطان ارسل معهم الفا من المماليك السلطانية وان نفقة مقدم الف هى الف دينار وامير سلاح ثلاثة الف دينار . بدائع الزهور ج ٢ صـ ١٨٠ ، عقد الجمان صـ ٤٩٧ ط الزهراء

ابنه[١] ، وقبل الهدية وارسل هدية وتشريفا وخلعة على انه من نواب السلطنة المصرية[٢] .

اما بقية اخبار الحملة فقد وصلت إلي ابلستين واتفقت مع حمزة ثم قصدت آقشهر فتلقاهم سلطان احمد بن قلج ارسلان – صاحب تلى صار – وقد رغب في الطاعة السلطانية ، وسار معهم حتى نازلوا مدينة آقشهر في أول ذى الحجة فهرب فتملكها حسن الايتاقى إلي قلعة برداش فملك العسكر المدينة وقلعتها ثم اضافوا غيرها ، وتوجهوا إلي ارزنكان فقدم إليهم رسول صاحبها يعقوب بن قراايلوك – ابنه مرزا ومعه عدد من القضاة والاعيان وزوجة ابيه – يطلبون منه العفو على يعقوب قراايلوك ، واجيبوا إلي ذلك كله ، وخلع على مرزا ، ودفع إليه خلعة لأبيه يعقوب ، وفرس بقماش ذهب ، أعيد وصحبته جهان كير وقد خلع عليه بنيابة ارزنكان التى تسلمها سودون النوروزى دوادار نائب حلب دون مانع وقد قضوا بتلك المناطق مدة يقرون الامور حتى اخر ذى الحجة ٨٤١ هـ[٣] .

١- وكان بصحبته شمس الدين القطمأوى الذي حمل كتب الأمراء المجردين إلي حلب . وقد اكرم الرسولان .

٢- السلوك ج ٤ ق٢ صـ ١٠٥٦ . وسوف نشير إلي سفره بعد قليل .

٣- السلوك ج ٤ ق٣ صـ ١٠٥٩

وفي خامس عشر المحرم سنة ٨٤٢ هـ اعيد مراد قاصم الامير حمزة بن قرايلوك ورسم بسفره وصحبته شمس الدين القلمطاوى احد موقعى حلب ، وجهز السلطان صحبتهما مبارك شاه البريدى ، وعلى يده جواب كتاب الامير حمزة بشكره والثناء عليه ، وتشريف له بنيابة السلطنة بممالكه ، ، وفرس بقماش ذهب ، وهدية هائلة ما بين قماش سكندرى وسلاح وغيره ، ونسخة يمين ، واجيب الامراء المجردون ايضا عن كتبهم ، ورسم لهم بسرعة الحضور إلي الديار المصرية[١] . كما ارسل بالخلع إلي نواب البلاد الشامية .

وقد وصلت مماليك نواب الشام في تاسع عشر من المحرم وعلى ايديهم المطالعات التى تتضمن انهم ملكوا مدينة ارزنكان وغيرها ، وانه خطب فيها باسم السلطان الملك الاشرف لانهم لم يعلموا بموته[٢] ولذلك كان تعليق المقريزى على هذه التطورات بقوله:

" من العجب ان مدينة اقشهر وقلاعها ومدينة ارزنكان اخذت للسلطان الملك الاشرف برسباى ، وباسمه وهو ميت ، وسطوته ومهابته في قلوب اهل تلك البلاد مع بعدها عنه وأوامر نافذة في تلك الراعايا ، ولو علموا

١- النجوم الزاهرة ج ١٤ صـ ٢٣١ السلوك ج ٤ ق٢ صـ ١٠٦٩، نزهة النفوس ج ٣ صـ ٤٣٢

٢- النجوم الزاهرة ج ١٤ صـ ٢٣٣

انه مات لما امكن العسكر السلطانى فعل شئ من ذلك ، ولكن الله يفعل ما يريد[١] .

وهكذا هدأت الامور وعادت التجريدة إلي حلب فدمشق فالقاهرة التى وصلوها في خامس شهر ربيع الأول . وصعدوا إلي القلعة حيث الأتابك جقمق ، وأعنوا الولاء الطاعة للسلطان يوسف ثم عادوا إلي بيوتهم[٢] . لتحدث امور ومستحدثات كما هى العادة عند توليه ابناء السلاطين .

ويبدو أن ولاء هذه المناطق ظل كما هو في عهد جقمق . فلما مات حمزة بن قراايلوك في رجب ٨٤٨ هـ تولى بعده ابن اخيه جيهان كير ابن على (اخو حسن الطويل) ولازالوا يرتقوا حتى صاروا ملوك الشرق[٣] . ولكن حدث سنة ٨٥٣ هـ ان أمد جقمق الامير قاسم بالمال والسلاح وهكذا انتهى الصراع والنزاع الذي كبد دولة الجراكسة في عصر برسباى الكثير ، وبخضوع القراايلوك لنفوذ سلطان مصر برسباى ومن بعده ، الذي تخلص من فسادهم وشرورهم ، ومإذاك الا

١- السلوك ج ٤ ق٢ صـ ١٠٧٢

٢- النجوم الزاهرة ج ١٤ صـ ٢٤٢- ٢٤٥ ، نزهة النفوس ج ٣ صـ ٤٣٦ - ٤٤٣

٣- بدائع الزهور ج ٢ صـ ٢٤٣ ، النجوم الزاهرة ج ١٤ صـ ٥٠٨

لشجاعة حزمه ويقظته كما علق المقريزى ، لأن حمزة كما يقـــول ابـــن تغرى بردى لم يكن مشكور السيرة على قاعدة أو باش التركمان الفسقة

مصر وقراقونيلى أو الشاة السوداء :

والمعروف ان هذه القبائل قد اســـتقرت في نواحـــى ارزنكـــان وسيواس وعظم امرها بها، و كونوا امارة جنوب بحيرة وان ، واســتقرت املاكهم في بعض بلاد ارمينية واذربيجان . ويعتبر قرا محمد قورمش بـــن بيلام خواجه هو المؤسس لهذه الامارة سنة ٧٨٠ هـــ . الذي كان علـــى لواء دائم لمصر في عصر برقوق ، وتصدى لتيمور لنك اكثر من مـــرة ، وخطب لسلطان مصر على منابره ، وضرب السكة باسم برقوق ، كمـــا وقف معه ضد تمرد يلبغا ومنطاش . وقد دفع حياته ثمنا لهذا الولاء وهـــذه الصداقة على يد ابن ذى القادر الذي بعث برأسه إلي يلبغا الناصر الثـائر بالشام [1].

وقد تولى بعده ابنه قرا يوسف الذي استمر على الولاء لســـلطان مصر وتصدى لقوات تيمورلنك اكثر مرة ، وهو يعتبر أشهر امراء هـــذه القبائل ، فقد انتصر على المغول ، وهو الذي اســـر اطلمـــش قريـــب

---

[1] راجع علاقات مصر الخارجية في عهد الظاهر برقوق (حلمى محمد سالم) ص ١٧ – ١٨ ط ١٩٧٦ م .

تيمورلنك ، ومع ذلك فقد تعرض للنفي اكثر من مرة علىيد تيمورلنك ، وقد سيطر في بعض الفترات على بغداد والعراق العربى بعد احمد بن أويس , لكن النزاع كان دائما بينه وبين خلفاء تيمورلنك من ناحية ، وقراايلوك زعيم الشاه البيضاء من ناحية . وانه في بعض الاحيان كان يلجأ إليه الخارجون على يد المؤيد شيخ ويقبلهم[١] .

ويبدو أن العلاقة لم تكن ولاء تاما أو عداء صريحا ، وإنما كانت تمليها تطورات الاحداث بين المتنافسين في المناطق الشمالية، وعلى اساسها كانت العلاقة مع مصر فلما تمرد على شيخ بعض نواب البلاد الشامية وأزداد اضطراب مناطق الحدود ، خرج بنفسه سنة ٨٢٠ هـ على راس حملة لتأديب العاصين والخارجين ، وبخاصة دلغادر ، وحينما وصل حلب ارسل إليه قرا يوسف ورسولا يدعى ذكر الله ، لعله يعلن الولاء ، فخلع عليه واعاده إلي مرسله[٢] .

واثناء وجود شيخ فى هذه البلاد ، اشتد الخلاف بين قرا يوسف وقراايلوك ، ووقعت بينهما حروب انتصر فيها قرا يوسف ، حتى ان أقباى نائب الشام ، واهل حلب خافوا من قوته ومن نفوذه وتطور الامور في هذه المنطقة ، وان قراايلوك قد كتب إلي السلطان المؤيد شيخ واحتمى به ، كما ان بعض قوات قرا يوسف هاجمت قلعة ميشار – أو

١- عقد الجمان صـ ٢٤٦ ط الزهراء

٢- نفسه ص ٢٩١

بيشار – فنهبوا بيوت الاكراد هناك . وعدّى منهم جماعة الفرات ، وتوجه إليهم منكلى بغا نائب ملطية ، فساروا إلي خرتبرت[١] .

ويبدو ان قرا يوسف خاف مغبة هذه التصرفات ، فكتب إلي المؤيد شيخ بكتاب حمله القاضى حميد الدين قاضى عسكر ، يشرح فيه تطورات الموقف ، وانه ليس معاديا لسلطان مصر . واكد هذا الموقف كتاب ارسله قراايلوك إلي السلطان وهو في حلب يخبره فيه بانه اصطلح مع قرا يوسف ، وتسلم منه قرا يوسف مدينة صور ، وعوضه عنها بالف الف درهم ، ومائة فرس ، ومائة جمل ، ورحل عنه إلي تبريز ، فقرأ الكتاب على العسكر فاطمأنت نفوس اهل حلب بعد ان كانوا قد تهيأوا للرحيل إلي القاهرة فرارا من قرا يوسف ، ووصل الي شيخ كتب اخرى فاطمأن . وقرر الرحيل إلي مصر[٢] .

الا ان الامور في هذه المنطقة لم تستقر بسبب التنافس الشديد بين الطامحين من التركمان ، ومن العجب ان يتمرد محمد بن قرا يوسف حاكم بغداد بعد ابيه الذي فكر في الزحف إليه لتأديبه ، ولكنه اشير عليه بعدم التعرض له[٣] .

١- نفسه ص ٢٩٢- ٢٩٤

٢- نفسه ص ٢٩٣ – ٢٩٦.

٣- نفسه ص ٣٠١

ولم تستقر الامور لشدة الخلاف بين قرا يوسف وقراايلـــوك . وان الأول نزل بعساكره إلي عينتاب ، وحصل بذلك خوف عظيم وبخاصـــة لأهل حلب حتى ان غالب اهلها طلعوا إلي القلعة . ثم بعد تخريب قـــرا يوسف لعينتاب ، وحصوله على مائة الف درهم فضة عاد إلي بـــلاده . ولذلك جمع السلطان القضاه والفقهاء للنظر في تصرفات قرا ايلـــوك . فحكموا بكفره وبالغوا في الحط عليه ، وتم النداء بالجهاد لقتالـــه . لأن خطره وصل البلاد الحلبية[1] .

ولكن عذر قرا يوسف انه يتتبع خصمه العنيد قراايلـــوك الـــذي استغل انشغال قرا يوسف بخطر شاه رخ . وهجم على ماردين التابعـــة لقرا يوسف وقتل من اهلها مقتله واخذ من البلاد ثمان قلاع و مدينتـين . وحول اهل اثنتين وعشرين قرية باموالهم وعيالهم لتسكينهم في بـــلاده . فتوجه إليه قرا يوسف لتحرير البلاد . فهرب قراايلوك منهزما أمامـــه الي أمد ثم قلعة نجم ، وارسل إلي نائب حلب يستأذنه في دخولهـــا فاشـــتد الخوف على اهلها ، و على اهل حماه كذلك . فلما وصلت هذه الانبـــاء إلي السلطان اثنى عزمه عن الحج ، وامر بالتجهز إلي الشام ، وكتب إلي العساكر بالمسير إلي حلب . وهذا في الوقت الذي ارسل فيه قرا يوسـف إلي نائب حلب وإلي السلطان معتذرا عن دخوله عينتاب و البيرة . لأن السبب هو عدوه اللدود قراايلوك . وانه على الولاء لســـلطان مصـــر

١- نفسه ٣١٩ ، ٣٢٢

شريطة الا يساعد عدوه. عند ذلك تحقق السلطان من الأوضاع ففتر عزمه عن السفر[١]. وهدأت الاحوال من جهة قرا يوسف . حتى انه لم يظهر ما يعكر صفو هذه العلاقات ، وان الحملة التى قادها ابراهيم بن المؤيد شيخ سنة ٨٢٢ هـ كانت موجهة أساساً لابن قرمان وغيره من العاصين .

ولما مات قرايوسف في ذى القعدة سنة ٨٣٢ هـ [٢]خلفه ابنه اسكندر على منطقة اذربيجان وتبريز وما جاورهما ، وسيطر محمد على بغداد وما والاها . والبصرة وواسط وغيرها بيد اصبهان الذي قتل حسين بن احمد بن أويس وقضى على دولتهم ،ولذلك كان عراق العرب والعجم بيدأولاد قرا يوسف. الذين عاصروا برسباى ، ولم تكن لهم سياسة واضحة ثابتة مع جيرانهم سواه شاه رخ أو قراايلوك أو سلطان مصر ، وكانت الظروف وتطورات المواقف هى التى تملى سياستهم ، وان كان الغالب على علاقتهم ببعضهم أولا وبجيرانهم تقوم على القوة ، وكانت الحروب لا تنقطع فيما بينهم ، وبين جيرانهم حينما يستعين احدهم بها . لذلك خرب العراق على ايامهم واصبحت بغداد اشهر مدن الاسلام .

---

[١] نفسه ص ٣٢٨ – ٣٢٩ .

[٢] انباء الغمر ج٣ صـ ١٢٣ ،عقد الجمان صـ ٣٩٢ ، شذرات الذهب ج ٧ ص ١٦٣ .

لا يسكنها الا الفا من جند اصبهان بن قرا يوسف والموصل اصبحت اثرا بعد عين ، وكذلك مشهد .

والذي يعنينا ان علاقتهم بمصر خلال عصر برسباى كانت ودية في الغالب وسوف نرى ذلك بشئ من التفصيل .

وفي ربيع الأول سنة ٨٢٥ هـ جاءت رسل اسكندر بن قرا يوسف تبريز إلي مصر ومعهم هدايا للسلطان ، منها بخاتى مقدار ثلاثين راسا وصقورة غير ذلك[١] .

كما ارسل رسولا من قبله ومعه رأسان زعم أنهما لمتملك السلطانية نيابة عن شاه رخ ، ورأس نائبه بشيراز وذلك في شعبان ٨٥٢ هـ [٢].

وهذا يدل على علاقة اسكندرالودية مع سلطان مصر للعدو المشترك وهو شاه رخ وقراايلوك ، واللذان استفحل خطرهما ، واتسع نفوذهما بعد موت قرا يوسف ، ولأنه لم يكن في أولاده من يساويه ولم تكن كلمتهم متحدة وبل كان كل واحد منهم يسعى لتحقيق مصلحة خاصة وان وقفوا مع برسباى في الغالب ضد اعدائه ، وان لم يظهر انه أمد احدهم بقوة عسكرية رغم انهم كانوا كالسياج لدولته على الحدود.

---

[١] عقد الجمان صـ ١٧٥ ط الزهراء

[٢] السلوك ج ٤ ق٢ صـ ٦١٨

وقد تعرض اسكندر بسبب سياسته الموإلية لبرسباى من ناحية ورغبته في التوسع من ناحية لكثير من الهجوم المضاد .

ففي ذى الحجة سنة ٨٣٢ هـ كان خراب تبريز عاصمته على يد شاه رخ وقراايلوك وذلك لما فعله بصاحب السلطانية وإرسال راسه إلي سلطان مصر وقد وقعت حرب عنيفة بين الطرفين قتل خلالها الكثير من الطرفين ، وانهزم اسكندر وفر امامهم فتتبعوه ثلاثة ايام دون ان يظفروا به فتوجه إلي بلاد الاكراد وسار إلي سلماس ، وقاس الشدائد ثم عاد إلي بلاده ، فوجد ان شاه رخ قد اجلى غالبهم إلى سمرقند ، وفوض على اهل تبريز مالا كثيرا [١].

وقد كتب إلي سلطان مصرفي جمادى الأولى شنة ٨٣٣ هـ يخبره بعودته إلي البلاد ، ورغبته في التوجه إلي قتال قراايلوك بعد انقضاء الشتاء فلم يلتف السلطان إلي كتابه لانشغاله بموت مماليكه وغيرهم بالطاعون[٢] . ولم يحرك ساكنا إزاء الاضطرابات التى وقعت في بلاد ابناء قرا يوسف ، اسكندر الذي اصابه ماذكرنا ، ومحمد متملك بغداد ، والذي لا يتجاسر على مجاوزة سورها ، حتى خلا احد جانبى بغداد من

---

[١] السلوك ج ٤ ق٢ صـ ٨١١ ، النجوم الزاهرة ج ١٤ صـ ١٦٨ ط الزهراء

[٢] النجوم الزاهرة ج ١٤ صـ ١٧٢ ، كما ورد كتاب قراايلوك في نفس الوقت يطلب العفو عن ولده هابيل . عقد الجمان صـ ٤٥٢ ط الزهراء

السكان وزال عنها رسم التمدن ورحل عنها حتى الحياك هذا في الوقت الذي نزل فيه اصبهان على الموصل ، ونهب وافسد المنطقة ، فكان عراق العرب والعجم نهوب وغارات[١] . حتى شمل الخراب من تبريز إلي بغداد مسيرة خمسة وعشرين يوما[٢] . وفي الوقت الذي كان فيه اسكندر ومحمد ابنا قرا يوسف في اضطراب كان اخوهم اصبهان في سنة ٨٣٥ هـ يحاول القضاء على نفوذ حسين بن احمد بن أويس في البصرة وواسط وغيرها ، وقضى على أسرة ابن أويس التركية [٣].

وعندما خرج برسباى لحملة آمد وقتال قراايلوك . وصلت الأخبار إلي مصر بقدوم اسكندر إلي السلطان للمشاركة معه في القتال ، فدقت البشائر بالقلعة ، ولم يكن الخبر على حقيقته وان ارسل إلي السلطان وهو على حصار آمد يعلن قدومه إلي السلطان فشكره على نيته واخبره بعقد صلح مع اقرا ايلوك[٤] وفي ذى الحجة ٨٣٦ هـ تحيل اصبهان على اخذ بغداد من اخيه محمد ، ونجح في خطته ونهب بغداد واساء السيرة حتى لقد خرج الناس بعيالهم واموالهم ولم يبق بها مع

---

(١) السلوك ج ٤ ق٢ صـ ٨١١ – ٨٣٧ ، النجوم الزاهرة ج ١٤ صـ ١٨٢ ط الزهراء

(٢) السلوك ج ٤ ق٢ صـ ٨٦٤

(٣) السلوك ج ٤ ق٢ صـ ٨٧٦

(٤) السلوك ج ٤ ق٢ صـ ٨٩٧

اصبهان سوى الف رجل من جنده ، كما اخرب الموصـــل والمشـــهد ، فصار الناس إلي مصر والشام بأعداد غفيرة[١] .

ولم تلفت هذه الاعداد الغفيرة نظر المسئولين في مصر والشـــام فهى حركة عادية في ذلك الوقت ولكن الذي ادخل السرور في النفـوس هو حرب اسكندر بن اقرا يوسف مع قرأ ايلوك الذي غزا مدينـــة ارزن الروم واخذها فتوجه قراايلوك إلي أمد ثم إلي ارقنين خوفا من اسكندر ، واستنجد بشاه رخ الذي كان قد عزم على الثأر من اســـكندر الـــذي استولى على شماخى من مملكة شروان التابعة له وقد توجـــه بـــالفعل إلي تبريز واخذها ولكنه لم يخرجها هذه المرة لأن اصبهان بن قرا يوسف متملك بغداد قد اعلن ولاءه لشاه رخ ودخل في طاعته[٢] .

رغم هذه الظروف القاسية التى مر بها اسكندر في اخريـلت ٨٣٨ هـــ فانه في صفر ٨٣٩ هـــ قد وقعت بينه وبين قرا ايلوك معركة شديدة انهزم فيها قرا ايلوك ، وتبعته الخيل في انهزامه ، فلما احس انه قد يـــدرك القى بنفسه في خندق المدينة فغرق ومات – كما سبق وذكرنا – فدفنـــه ابناؤه في مسجد هناك فتقدم اسكنر ودخل المدينة، وسأل عن قبره فـــدل عليه ، فأخرج جثته وحز راسه . وارسله إلي برسباى ومعه خمسة رؤوس علقت على باب زويلة ودقت البشائر فرحا بذلك في مصر والقـــاهرة ،

١- السلوك ج ٤ ق٢ صـــ ٩٦٣

٢- السلوك ج ٤ ق٢ صـــ ٩٥٠- ٩٥٥

وفرح السلطان للتخلص من عدوه قرا ايلوك على يد صديقه اسكندر بن قرا يوسف [١]. الا ان اسكندر لم يفرح كثيرا بانتصاره على قراايلـــوك . فقد وصل احمد جوكى والامير بابا حاجى على عسكر شـــاه رخ نجـــدة لقراايلوك ، وقد التقت باسكندر ووقعت بين الطرفين معركة عنيفة حيث قتل من الطرفين خلائق كثيرة عذرميا فارقين وانهزم اسكندر إلي جهـــة بلاد الروم وكتب بخبره إلي السلطان برسباى ، ثم استمر في مسيرته حتى نزل في افشهر ، فخدمه صاحبها ، ثم بعث في السر إلي احمـــد جوكـــى يخبره بوجوده ، ففوجئ اسكندر بالعسكر ، فهرب مع جماعـــة ، وغنـــم جوكى ما كان معه ، وقد توجه إلي توقات ولم تســـنح لـــه الفرصـــة بالاستقرار في دولة مراد بك بن محمد كرشجى بن عثمـــان ، ففـــر إلي البلاد الفراتية[٢] فلعله لجأ إلي اخيه اصبهان ، لانه ارسل إلي برسباى في ربيع الاخر ٨٣٩ هـــ يخبره على يد حسن بيك قاصد بالتودد والصداقـة ، وانه هو واخوه اسكندر يقاتلان شاه رخ . كما ارسل اسكندر قصـــاده ومعهم كتابه ، فقرئ على برسباى ، واجيب بالشكر والثناء ، وحمل إليـه ماله وغيره بنحو عشرة الاف دينار ،

---

[١] السلوك ج ٤ ق٢ صـــ ٩٦٣

(٢) السلوك ج ٤ ق٢ صـــ ٩٥٧

ووعد بمسيرة السلطان إلي هذه البلاد[١] .

كما ارسل إليه مرة ثانية يستأذنه في القدوم ، فوعد بخير ، ثم خلع على رسوله ومعه الرد على رسالته[٢] .

ولم تصرح المصادر المعاصرة بفحوى الرد وان تحدثت عما لحق باسكندر الذي تحداه شاه رخ لموقفه من سلطان مصر. فنزل شاه على سلطانية وعزم على عدم الرحيل عنها حتى يبلغ غرضه من اسكندر ، فلم يلتفت السلطان إلي هذه الاخبار لانشغاله بامر جانبك الصوفي خوفا من ان ينجده شاه بجنوده[٣] . كما اخرجه عن تبريز وعين عليها جهان شاه بن قرا يوسف وزوجه بنساء اسكندر بحكم الشرع[٤] . فتشتت حليف برسباى في الافاق . ثم فكر في العودة إلي عاصمته تبريز ، فنزل قريبا منها ، فتصدى له اخوه جهان شاه نائب شاه رخ ، فوقعت بينهما موقعة انهزم فيها اسكندر فلجأ إلي قلعة يلنجا (النجا) من عمل تبريز ، فحاصره بها جهان شاه.

١- النجوم الزاهرة ج ١٤ صـ ٢٥٥ ، السلوك ج ٤ ق٢ صـ ٩٦٤

٢- السلوك ج ٤ ق٢ صـ ٩٧٥

٣- النجوم الزاهرة ج ١٤ صـ٢٦١ ط الزهراء ، السلوك ج ٤ ق٢ صـ

٤- النجوم الزاهرة ج ١٤ صـ ٢٦١ وقال ان اسكندر كان في عصمته أزيد من ثمانين امرأة

كما ان اصبهان بن قرا يوسف جمع لحرب حمزة بن قـــرا ايلـــوك الذي جمع له وحاربه وانتصر عليه فامتنع بقلعة فولاه[١] .

هذا بجانب اخبار جانبك الصوفي ودلغادر وقرمان التى اجـــبرت برسباى على التفكير في الخروج بنفسه لاعادة الامن والاستقرار في هـذه المناطق ، ومساعدة حلفائه ، ولكنه لم يخرج بنفسه ، واكتفي بارســـال تجريدة هى الاخيرة في عهده فقتل جانبك الصوفي ، وحملـــت رأســـه إلي القاهرة وخضع حمزة بن قراايلوك لسلطان مصر كما ذكرنا .

فقد استفاد سلطان مصرمن من تأييد ابناء قرا يوسف له استفاده كبـيرة ، دون أن يرد لهم الجميل ، وتركهم في الغالب لمصيرهم . لقد احتضنـــهم وسخرهم لتحقيق اغراضه ضد اعدائه شاه رخ وقرا ايلوك ، فـــهم قـــد خلصوه من قرا ايلوك الذي اقلقه كما حالوا دون وصول شـــاه رخ إلي الاملاك المصرية ، ولم يسمحوا له بذلك لعلاقتهم مع مصـــر ، فكـــانوا كالحواجز الطبيعية امام شاه رخ الذي لا يمكنه الوصول إلي ســـوريا الا عن طريق املاكهم ، فأعاقوا حتى أثناء الانتصار على بعضـــهم ، ولـــو كانوا اصدقاء شاه رخ لسهل عليه تحقيق طموحاته ، ولأمـــد جـــانبك بقوات اقتحمت الديار الشامية فالمصرية ، ولكن الفضل كل الفضـــل لاسكندر في الغالب . الذي لقى حتفه على يد ابنه شاه قومـــاط اثنـــاء

١- السلوك ج ٤ ق٢ صـ ١٠١٠ ، النجوم الزاهرة ج ١٤ صـ ٢٧٠

اعتصامه بقلعة يلنجا (النجا) فقد ذبحه واراح الناس منه في ذى القعـــدة سنة ٨٤١ هـــ وسلم قوماط القلعة إلي عمه جهان شاه[١] .

والجدير بالذكر ان المؤرخين لم يثنوا عليـــه ولا علـــى اخوانـــه ، فكانوا لا يتدينون بدين ، واشاعوا الخراب والفساد في البلاد ، فكـــانوا أوحش سريرة واسوأ سيرة ، وأضعف دينا ، وأعدم مروءة واقل نخـــوة حتى جعلهم ابن تغرى بردى وزنادقة كفره فسقه[٢] . بل انه عد تكـــرار قتال اسكندر لشاه رخ وهزيمته المتكررة لقله مروءته وافـــراط جهلـــه ، وسخفه وجنونه ، وعدم اشفاقه على رعيته وبلاده حيث يقاتل من لا قبل له ولا طاقة له بدفعه ، فهذا هو الجنون بعينه[٣] .

وعلى كل حال فقد افاد برسباى منهم افاده كبيرة وقد استمرت هذه الاستفادة بالاستقرار النسبي خلال عصر جقمق ، ولا سيما وقـــد كانت علاقته طيبة بشاه رخ – كما وضّحنا ذلك في مكانه – ولم يكـــن من بين الحكام على هذه الكيانات من يكون على شاكلة قـــرا يوســـف واسكندر وقرا أيلوك ، ولم تظهر سوى بعض الخلافات بـــين التركمـــان سواء اصبهان أو جهان شاه و جهان كير ، فهى خلافات محدودة لم تتعـد

---

(١) المنهل الصافي حوليات دمشقية ٢ ص ٣٧٤ ، الضوء اللامع ج ٢ ص ٢٨٠ ، النجوم الزاهرة ج ١٥ صـــ ٢٢٠ ، عقد الجمان صـــ ٥٠٦ ط الزهراء ، انباء الغمر ج٤ صـــ ٧٧ ، السلوك ج ٤ ق٢ صـــ ١٠٦٤ .

(٢) النجوم الزاهرة ج ١٤ صـــ ٢٣٤ ذرا الكتب العلمية.

(٣) نفسه ص ١٦٩

المنطقة للتأثير على حدود مصر ولذلك لم يجرد إلي بلاد الشام إلا حملة واحدة في بداية سلطنته للقضاء على خروج بعض النواب بها[١] .

ولذلك كان يسترضى جهان شاه بن قرا يوسف صاحب تبريز بالمال ، وبخاصة بعد موت شاه رخ باعتباره اقوى حاكم تركمانى ، ففي سنى ٨٥٥ هـ وصل قصاد جهان شاه ، فعمل لهم موكبا جليلا بالخوش من قلعة الجبل ، وقدموا ما معهم من هدية وعمل لهم خدمة كبيرة ، وانعم عليه بمبلغ الفي دينار[٢] . وكانت هدية جهان تتكون من اربعة عشر بختيا وثلاثة اقفاص اسلحة مختلفة . وقد حضر مع الوفد احد ابناء اسرة قرا يوسف ليكون ضمن مماليك السلطان . فضمه جقمق إلي حاشية ابنه الفخرى عثمان[٣] .

علاقة مصر بتركمان دى الغادر[٤] :

كانت امارة دى الغادر قد اسستها طائفة من التركمان في نواحى البستان ومرعش ، ثم كثرت واستفحل امرها وامتد ملكها من ديار بكر بالجزيرة الفراتية إلي شرق اسيا الصغرى ، وشمل خرتبرت وبهسنى وأمد

١- راجع السلوك ج ٤ ق٢ صـ ١١١٢ وما بعدها حتى ص ١١٥٨

٢- النجوم الزاهرة ج ١٤ صـ ٤٣٣ . وهدية قومت بنحو خمسة عشر الفا دينار . البتر المسبوك ص ٣٤٥ .

٣- البتر المسبوك ص ٣٤٥.

٤- بالدال وبالذال الغادر ، دالغادر ، ذلغادر ، ذوالقدر ، طول قدر , و درقدر .

والرها وملطية وكخته وابلستين ومرعش وعينتاب ودارنده . وكانوا يزعمون انتماءهم إلي كسرى انوشروان وكان أول زعمائهم قراجا بن دى الغادر[١] ومن بعده ابنه خليل الذي عاصر بداية دولة المماليك الجراكسة ، وكان موقفه عدائيا مما اضطرب برقوق إلي ارسال اكثر من حملة لنوابه في الشام لمحاربه امرائها ، والحد من خطورتهم على الحدود الشامية ، حيث انهم رغبوا في توسيع ممتلكاتهم ولو على حساب املاك السلطة المصرية في هذه البلاد وقد استطاعت هذه القوات التابعة لمصر من القضاء على خليل سنة ٧٨٨ هـ بخديعة من إبراهيم بن يغمر التركماني[٢] . ثم القضاء على سولى سنة ٨٠٠ هـ[٣] فضعفت شوكة تركمان دى الغادر ، وخاصة وقد نشب الصراع بين ابناء العم (ابناء خليل وابناء سولى) على الزعامة ، فتوجه صدقه بن سولى إلي مصر واعلن الطاعة والولاء لسلطانها فولاة الامارة لكنه لما عاد وجد ناصر الدين محمد بن خليل يدعى الامارة لنفسه وينازعه عليها ، فوقعت بينهما المعارك العديدة التى اضعفتهم ، وانتهت بامارة محمد بن خليل .

١- اخبار الدول للقرماني ص ٣١٩ . انظر علاقات مصر الخارجية في عهد برقوق (حلمى سالم) ص ٧ .

٢- راجع انباء الغمر ج ١ صـ ٣١٢

٣- نفسه ج٢ ص ١٩

وظلت الامور هادئة نسبيا زمن فرج بن برقوق بسبب تهديدات تيمور لنك لهذه البلاد ، ولانشغال فرج بالخارجين عليه وبخاصة شيخ ونوروز .

فلما كان عهد المؤيد شيخ المحمودى بدأ خطر هذه الامارة يعود إلي السطح من جديد مما اضطره للخروج بنفسه اكثر من مرة وارسال ابنه ابراهيم مرة اخيرة حدت من خطورتهم[1] .

وكانت هذه الحملات تهدئة وقتية لتركمان دى الغادر وغيرهم ، فقد عادوا إلي فسادهم واعتدائهم على اطراف الدولة المصرية في عصر برسباى ، فكان لابد من وقفه صارمة معهم أو محاولة كسبهم إلي تبعية الدولة وبسط نفوذه عليهم . وأول ما نجده من اخبار عن هذه الامارة في عهد برسباى ماذكره العينى في حوادث ٨٢٧ هـ ففي العاشر من رمضان قدم إلي القاهرة الامير علبك بن الامير خليل بن دلغادر ومثل بين يدى السلطان . ثم نزل في بيت الامير جمال الدين الاستادار ، وانعم السلطان عليه قماشا كثيرا ، ورتب له مرتبات ، وكان قدومه من الضرائب لأنه واخاه ناصر الدين وابـاهم خليل وجدّهما قراجا ، واعمامهم وسائر قرابتهم ، دائما عصاة على السلطنة فاطاعتهم قليلة جدا مع عدم تمثلهم للسلطان ، ولولا انه حصلت ضرورة عظيمة لما

١- راجع عقد الجمان صـ ٢٠٢ – ٢٨١ ط الزهراء ، والمنهل الصافي ج ٧ ص ٣٢٤

اجترأ على القدوم إلي السلطان ، وذلك ان اخاه الامير ناصر الدين صاحب ابلستين وقيسارية الروم ، وقعت بينه وبينه عداوة أدت إلي كبسه وهو في غفلة وقلة رجال ، ونهبه نهبا عظيما بحيث انه بقى على الارض السوداء من الغبينة والقهر ، لذلك تجرأ وقدم إلي خدمة السلطان فأصابة الخير الوفير ، فقد انعم عليه بالف دينار وكتب له من الشام الف دينار اخرى ، واعطى قماشا وخيلا وجمالا ، وكذلك الامراء المقدمون انعموا عليه من الخيل والقماش . وما كان يليق له الا القتل ، واقل عقابه الحبس المؤيد لأنه من الفجرة المفسدين ، من الظلمة المجرمين[1].

وهذا الحكم للعينى يوضح لنا موقف هولاء من مصر ، ويحدد مساحة التسامح الذي اظهره برسباى لم يكن حبا في علبك (على بلك) بقدر ماهو سلاح ضد ناصر الدين محمد لاستخدامه وقت الحاجة . ولذلك نرى السلطان يعينه على عينتاب ، فظل بها حتى سنة ٨٢٩ هـ حيث قبض عليه نائب حلب الامير جار قطلو بأمر السلطان لسوء سيرته وظلمه ، ويذكر العينى انه في الرابع عشر من جمادى الأولى ، جاء الخبر بالقبض على علباك وجماعة من حاشية المفسدين . وقتل جماعة ، وسلم

---

[1] عقد الجمان (تحقيق القرموط) ص ٢٣٤ ط الزهراء ؛ نزهة النفوس ج ٣ صـ ٤٥ - ٥٥ .

المقبوض عليهم مقيدين إلي نائب قلعة حلب . وقد فرح الناس لذلك فرحا شديدا لما كان يصدر منهم من انواع الظلم والفسق والفجور[١].

ولذلك لم تنفعه الشفاعة حين قدم في شعبان ٨٢٩هـ جماعة من أولاد ناصر الدين بن دلغادر من حاشيته ومعهم امراة مسنة ذات مكانة متميزة للشفاعة في علبك ومعهم الهدايا فلم يقبل السلطان شفاعتهم لجرمه . وآخذه الله اخذ عزيز مقتدر ، فقد امر السلطان نائب حلب جار قطلو بقتله ففعل[٢] . واراح الله البلاد والعباد منه.

ومما ذكره العينى ضمن الوفود التى قدمت على برسباى سنة ٨٣٢ هـ كان قاصد من عند الأمير علبك بن دلغادر ومعه عند ام حمزة[٣] . وهذا يدل على ولاء حمزة لسلطان مصر ، أو ان برسباى قد عينه على بعض الامارات (مرعش) لاستخدامه ضد عمه محمد عند الضرورة ، فوثب عليه فياض بن عمه ناصر الدين فأخرجه منها ، واستقر بها بغير توليه من السلطان ولا بأذنه ولا بمرسوم ، فما كان من السلطان الا ان امر نائب حلب قرقماس بالتوجه إلي هناك بقواته ومساعده

---

(١) عقد الجمان صـ ٢٩٨ ط الزهراء ، نزهة النفوس ج ٣ صـ ١٠٢

(٢) نفسها

(٣) عقد الجمان صـ ٣٧٤ ط الزهراء

تركمان انطاعة ، فتوجه إلي مرعش حيث قبض على قياض[١] ، وارسله إلي القاهرة، واعاد حمزة إلي النيابة في مرعش وقد سجن فياض في القلعة . فشق على ابيه هذه التطورات . فجهز زوجته خديجة خاتون والدة فياض و معها هدايا قيمة ومفاتيح قيصرية لتشفع عند السلطان في ولدهما فياض ، فوصلت حلب في رمضان ، ووصلت القاهرة أواخر شوال منها فقدمت الهدية فقبلت ، وافرج عن ولدها بشفاعتها واعطى نيابة مرعش واستقر أبوه على حالة في قيصريه كما طلب وطلبت[٢] ، ولكن تطورت الامور بسرعة بعد ظهور جانبك الصوفي فتدخلت الاحداث ، وتغيرت المواقف حسب المصالح وهذا يدعونا لتوضيح هذه الفقرة وارتباطها بتركمان دلغادر وغيرها .

ظهور جانبك الصوفي وتطورات الاحداث :

المعروف أن جانبك الصوفي قد هرب من سجنه في الإسكندرية بحيلة عجيبة وتمكن من الوصول إلي القاهرة حيث أختفى بها عدة سنوات ، كبست فيها بعض احيائها اكثر من مرة ، فلما واتته الفرصة تنكر وتخفي حتى وصل البلاد الشامية لعدم امكانه الظهور في مصر ربما

---

[١] كان القبض عليه في ربيع الآخر ٨٣٨ هـ . انباء الغمر ج٣ صـ الغمر ج ٣ ص ٥٣٨

[٢] انباء الغمر ج٣ صـ ٥٤٣ ، وقد ذكر ابن ابراهيم بن قرمان قد أرسل السلطان بشأن قيصرية التى كانت تابعة لهم من قبل استيلاء ناصر الدين عليها – على ان يدفع للسلطان عشرة الاف دينار كل سنة وغير ذلك ، فوفق السلطان ولكن وصول خديجة خاتون غير ذلك

لقله المناصرين ، ويقظة برسباى ثم توجه إلي بلاد الروم حيث اقام عند اسفنديار صاحب قسطمونى الواقعة في شمال اسيا الصغرى حتى اعلن ظهروه في شوال سنة ٨٣١ هـ بتوقات حيث ساعده اميرها اركج باشا[١] .

وقد اتبع جانبك خطوات سليمة وواقعية ، فقد كاتب إلي الامراء التركمان وغيرهم يطلب منهم الوقوف معه ضد برسباى ، فكتب إلي شاه رخ وإلي قراايلوك وإلى ناصر الدين بن محمد بن دلغادر بجانب الامراء التركمان الاخرين .

كما كتب إلي نواب السلطان بالقلاع والمدن الشمالية في سوريا فكتب إلى نائب حلب ونائب درندة .

وقد ايده شاه رخ وقراايلوك وناصر الدين بن دلغادر وغيرهم . اما نواب السلطان فقد قبضوا على رسل جانبك وارسلوا بالكتب إلي السلطان في مصر فتنكد للغاية حيث نزل عليه نزول الصاعقة ، وأوجس في نفسه خيفة ، وكان رد فعله عزل بعض النواب الذين يخشى من انضمامهم إلي جانبك فعزل نائب حلب قرقماس العلائى و نائب طرسوس قانصوه النوروزى.

---

[١] وانظر النجوم الزاهرة ج ١٤ صـ ٢٤٦ دار الكتب العلمية .

وفي نفس الوقت كان التأييد لجانبك الصوفي يتزايد ، فقد انضم إليه صديقه القديم قرمش الاعور[١] . وانضم إليه جماعة كبيرة من التركمان منهم اسلماس بن كبك ومحمد بن قطبكى واخذ نجمه في الظهور .

في ذلك الوقت خرج حمزة بن دلغادر على طاعة السلطان ، وتوجه إلي ابن عمه سليمان بن ناصر الدين محمد بن دلغادر بعد ان استوثق منه ، وحلفه . ولكن سليمان في نفس الوقت لم يستطع المحافظة على قيصرية التى حاصرها ابراهيم بن قرمان ، ووافقه اهلها على التسليم له ، ففر سليمان إلي ابيه في أبلستين . التى وصلها دوادار جانبك الصوفي ومحمد بن كندغدى بن رمضان التركمانى يطلبان منه مساعده جانبك وعدم تسليمه إلي اى احد إذا قدم عليه ولا يخذله ، وحلفاه على ذلك . إلا انه لم يظهر هذا الموقف لانه لم يعلم بما حدث لزوجته وابنه خديجة خاتون وولده فياض في مصر . لذلك جارى السلطان وداراه ، واظهر حرب انصار جانبك حتى تصل الاخبار إلي السلطان فيسرع في تحقيقه الهدف من ارساله زوجته .

---

[١] قبض برسباى على قرمش الاعور بعد هروب جانبك الصوفي ، ثم اطلق سراحه ، فاشترك سنة ٨٢٧ مع تنبك البجاس نائب الشام ضد السلطان . فلما قضى سودون بن عبد الرحمن على تنبك هرب قرمش واختفي حتى ظهر جانبك فانضم إلي ه . عقد الجمان صـ ٢٢٠ ط الزهراء

ولذلك ارسل ناصر الدين ابنه سليمان بقواته لمحاربة جانبك ومن معه اثناء حصارهم ملطية على الحدود ، واستطاع سليمان التغرير بجانبك واظهر له النصح والاخلاص حتى اطمأن إليه ، ثم دبر امر اختطافه وذهب إلي ابلستين[١]. وكتب يعلم السلطان بهذا ، ويطلب من يأتيه من قبل السلطان لتسلمه فوصل كتابه في ربيع الأول ٨٣٩ هـ [٢]. ولذلك اختار السلطان شادى بك احد رؤوس النواب ، للقيام بهذه المهمة، وجهز معه مالا وخيلا لناصر الدين محمد وابنه سليمان . ولكن للأسف عندما وصل شادى إلي ابلستين اخذ ناصر الدين الهدية ولم يسلمه جانبك فقد اطلق سراحه[٣] ، حيث اطمأن لوصول زوجته وابنه فأدرك حريته في التصرف الذي يناسب دواخله ، فاعلن انضمامه صراحة إلي جانب جانبك الصوفي ضد السلطان برسباى ، حتى انه زوجه احدى بناته لتقوى الصلة بينهما نكاية في سلطان مصر ، وقد زعم انه اطلقه حتى لا يعاير به ، وخاف من مخالفه شاه رخ وغيره من ملوك الاقطار الذين كتبوا إليه للتوصية بجانبك الصوفي[٤].

---

[١] راجع تفاصيل الاحداث في النجوم الزاهرة ج ١٤ صـ ٢٥١ ، السلوك ج ٤ ق٢ صـ ٩٤٦ – ٩٦٠ .

[٢] السلوك ج ٤ ق٢ صـ ٩٦٠ ، النجوم الزاهرة ج ١٤ صـ ٢٥١

[٣] السلوك ج ٤ ق٢ صـ ٩٦٤ ، النجوم الزاهرة ج ١٤ صـ ٢٥٨

[٤] النجوم الزاهرة ج ١٤ صـ ٢٥٨

لقد شق على السلطان هذا الموقف ، وقلق الناس لذلك ، فعزم السلطان على السفر إلي هذه البلاد ، وجمع الامراء وحلفهم على طاعته ، وعين سبعة امراء للسفر والفا من المماليك السلطانية والفا من اجناد الحلقة ، فاخذوا في الاستعداد[١] كما كتب إلي امراء الشام باخذ الاهبة والاستعداد لنجدة نائب حلب الجديد عند الضرورة ، وتجهيز الاقامات للسفر .

وفي تلك الاثناء ورد عليه كتاب اسكندر بن قرا يوسف الذي خلصه من خصمه العنيد قرا ايلوك ، وكان يستأذن في القدوم كما سبق وذكرنا فوعدبخير كما قدم الامير اسلماس بن كبك التركماني مفارقا لجانبك الصوفي قادما على السلطان فاكرمه وانعم عليه وخلع عليه خلعة السفر فيما بعد ، ورسم بتجهيزه[٢] .

ولما استكملت الحملة استعدادها ، تحرك افرادها في الخامس والعشرين من شهر شعبان ٨٣٩هـ يقودهم جقمق اتابك العساكر ، وبصحبته ستة من امراء الألوف[٣] .

وكان هدف هذه الحملة اقرار الامور في هذه المناطق التركمانية المضطربة ، وتأمين حدود الدولة المجاورة لها ، والتخلص من جانبك

١- السلوك ج ٤ ق٢ صـ ٩٧٠

٢- النجوم الزاهرة ج ١٤ صـ ٢٥٩

٣- السلوك ج ٤ ق٢ صـ ٩٧٠

الصوفي وخطره ، ويجب لفت النظر إلي ان الصراعات العديدة والقوية بين الكيانات السياسية على اطراف سلطنة مصر كالحروب بين شاه رخ وغيره ، وبين قراايلوك وابناء قرايوسف ، وجعل بعض انصار جانبك ينشغلون عنه بل ويصل بعضهم إلي سلطان في مصر . ولم يبق له معاضد قوى وعنيد سوى تركمان دى الغادر ، ولذلك كان التصدى لهم بعنف وقوة وهذا ما سنوضحه هنا ان شاء الله .

١. سار الامير تغرى برمش نائب حلب بعساكره وصحبه الامير قانى باى الحمزأوى نائب حماه بعساكرها ، ونزلوا على عينتاب ، وفي نفس الوقت الذي نزل فيه جانبك الصوفي على مرعش فتوجهوا إليه عن طريق الدربند – طريق بين جبلين – حيث نزلوا على بزرجق (سويقة) ثم عدوا الجسر وقصدوا ناصر الدين بك ابن دلغادر نائب ابلستين من طريق دربند كينوك فصعب عليهم سلوكه لكثرة الثلوج ، فمضوا إلي دربند بهسنا للوصول إلي ابلستين التى لم يجدوا فيها ناصر الدين بن دلغادر ،فأمر تغرى برمش بنهبها واحراقها فتم ذلك وعادوا بكثير من المغانم ، وتركوها قاعا صفصفا ، وعادوا إلي حلب بعد خمسين يوما من تركها[1] .

---

[1] النجوم الزاهرة ج ١٤ صـ ٢٦٢

٢. وصلت الحملة من مصر إلي حلب ، فبلغها تجميع ناصر الدين بن دلغادر لقواته قرب كينوك ، فتوجه إليها خجا سودون ، وارسل إليه تغرى برمش حسام الدين حسن بن حاجب الحجاب بحلب تقوية له . وقد التقت هذه الجماعة بجانبك الصوفي وقرمش الاعور وكمشبغا امير عشرة وأولاد دلغادر – ماعدا سليمان – وكان هدفهم لقاء خجا سودون ، وقد نزلوا على مرج دلوك، ثم منها إلي عينتاب ، فتقابل الطرفان اخر النهار ، فاستعدوا ، ثم نشب القتال في الصباح وكانت القوات المصرية مقسمة إلي قسمين مع كل امير جماعة من الترك وتركمان الطاعة وتصدت بعنف لجانبك ومن معه ، واسفر الموقف عن اخذ قرمش وكمشبغا وثمانية عشر فارسا ، فانهزم جانبك ومن معه وتبعهم العسكر ثم عادوا إلي حلب بالاسرى فسجنوا بها ، وكتبوا للسلطان بخبرها[1] . ثم وسطوا وارسل برأس قرمش وكمشبغا إلي القاهرة ثم القيتا في سرداب مملوء بالأقذار[2] . ودقت البشائر لذلك اياما ، وفرح السلطان والناس وارسل إلي حاجب حجاب حلب وخجا سودون بالشكر والثناء .

١- السلوك ج ٤ ق٢ صـ ٩٨١

٢- نفسه ص ٩٩٥ ، المنهل الصافي ح٤ ص ٢٢٧

٣. توجه العسكر المجرد إلي حلب نحو ابلستين وساروا حتى وصلوا إلي مدينة سيواس ، فوجدوا ان ناصر الدين وجانبك قد هربوا وتوجهوا إلي بلاد الروم فخربت القوات سيواس ، وعادت منها بغنايم كثيرة إلي حلب[١] . وبعد ان مكثت بها عشرة ايام في التخريب والتدمير والاحراق ، في الوقت الذي استمر فيه هروب جانبك ومن معه حتى وصلوا جبل اق طاغ – معناه الجبل الابيض – ثم مضوا منه إلي انكورية . ومنذ هذا الهروب اخذ امر جانبك الصوفي في ادبار ، لانه كان خاملا قليل السعد ، لا يتحرك إلا وانعكست عليه الامور ، مع ما اجتمع إليه من ملوك وخلائق في هذه المرة[٢] .

ولما ادت هذه الحملة مهمتها وفر جانبك ومن يساعده من دى لغادر، وجد السلطان عدم جدوى بقائها بهذه المناطق ، فكتب إلي الامير الكبير جقمق بالعودة إلي الديار المصرية ، وقد انعم عليه بالف دينار ، وعلى كل مقدم الف خمسمائة دينار ، فقدمت الحملة القاهرة في السابع عشر

١- السلوك ج ٤ ق٢ صـ ٩٩٦

٢- المنهل الصافي ج ٤ ص ٢٢٩ ، النجوم الزاهرة ج ١٤ صـ ٢٦٣

من جمادى الأولى سنة ٨٤٠ هـ و طلعوا القلعة وقبلوا الارض وخلع السلطان عليهم الخلع السنية ، واركبهم خيولا بقماش ذهب[١] .

عودة الاضطراب ونهاية المطاردة :

ومع ان الحملة عادت بعد ان حققت هدفها . الا ان امور هذه المنطقة لم تستقر ، فقد هاجم ناصر الدين بن دلغادر بلاد ابراهيم ابن قرمان ، واحتل قلعة اقشهر و قلاعا اخرى .

كما اشيع ان مراد بن محمد بن بايزيد العثمانى – الذي ارسل منذ قليل الهدية إلي برسباى – فكر في توجيه يد العون والمساندة لابن دلغادر وجانبك الصوفي ، نكاية في ابن قرمان . فلما وصلت هذه الانباء إلي السلطان عقد مشورة في العاشر من رمضان سنة ٨٤٠ بهذا الخصوص ، ووقع الاتفاق على ضرورة سفر السلطان إلي تلك المناطق لاعادة الامن والاستقرار ، وكتب كذلك إلي امراء الشام بالتحرك لمساندة ابن قرمان . واخذ امراء مصر في الاستعداد للسفر[٢] .

١- النجوم الزاهرة ج ١٤ صـ ٢٦٣ ، السلوك ج ٤ ق٢ صـ ١٠٠٢ ،انباء الغمر ج٣ صـ ٤٣ ، عقد الجمان صـ ٤٨٥ ط الزهراء

٢- انباء الغمر ج٣ صـ ٤٤- ٥٢ ، النجوم الزاهرة ج ١٤ صـ ٢٦٥ ، نزهة النفوس ج ٣ صـ ٣٨٣.

وفي هذا الوقت كان الخلاف قد اشتد بين مراد بك بن محمد العثمانى وبين ابن قرمان ، حتى اضطر نائب حلب إلي الخروج لمساندة ابن قرمان حسب أوامر السلطان ، ولكن الامور عرضت على محك التصالح الذي تم بين الطرفين ، فاستقرت الاحوال ، وعاد نائب حلب ، واطمأن السلطان إلي عدم تقديم ابن عثمان مساعدة لعدويه جانبك وناصر الدين وانقضى عام ٨٤٠ هـ على هذا الحال[١]

وفي خامس عشر المحرم سنة ٨٤١ هـ توجه نائب دوركى المملوكى ومعه عدة نواب من تلك الجهات على راس ألفى مقاتل (فارس) فطرقوا بيوت الامير ناصر الدين بن محمد بن دلغادر وجانبك الصوفي على مقربة من مرعش ، فنهبوا واحرقوا ، فأضطرا إلي الهروب في نفر قليل ، لأن جموع عساكرهما كانت مع سليمان بن ناصر الدين على حصار قيصرية الروم[٢] . فاضطر ناصر الدين بن دلغادر بعد هذه المعاناه مع صهره دون طائل إلي التخلى عنه ، فكفاه خرابا وتدميرا لبلاده ، وكفاه حروبا ومعارك خاسرة، فتوجه جانبك الصوفي إلي أولاد قراايلوك بديار بكر (محمد ومحمود) عله يجد عندهما العون والمساعدة بعد تخلى ابن دلغادر

١- السلوك ج ٤ ق٢ صـ ٢٠٠٣ - ٤ ، ١٠٠٩ - ١٠١٠ .

٢- السلوك ج ٤ ق٢ صـ ١٠١٨- ١٠١٩ ، نزهة النفوس ج ٣ صـ ٣٩٢ ، وقد توجه اينال الجكمى نائب الشام إلي حلب وكذلك غيره من النواب لقصد مناصرة ابن قرمان ضد سليمان بن دلغادر المحاصر لقصيرية ، النجوم الزاهرة ج ١٤ صـ ٢٦٦

عن مناصرته وقد اكرماه وانزلاه عندهما ، ولكن تغرى برمش نائب حلب اخذ يتحايل عليهما ، ويدبر لهما حتى استمالهما ، ووعدهما بمال جزيل مقابل التخلي عن مناصرة جانبك الصوفي وتسليمه فمالا إلى الخمسة الالف دينار ، وفكرا في التحايل على جانبك لتسليمه ، فلما بلغه الخبر أو احس بما يبيّت له حاول الهرب بعد استشاره من معه ، وبالفعل تحرك في عشرين فارسا يطلبون النجاة فعلم القراايلوك بذلك فتتبعوهم حتى ادركوهم وقاتلوهم ، فاصاب جانبك سهم وسقط منه عن فرسه ، فاخذوه وسجنوه فمات من الغد ، فقطعت راسه ، وحمل إلي نائب حلب فسلطان مصر فطار من الفرح[1] . كما سبق ان ذكرت .

وقد قيل في موت جانبك انه اصيب بالطاعون ومات فقطعوا راسه وارسلوها إلي القاهرة فطيف بها ثم القيت في مجارى الميله . والأول هو المتداول بين الناس على حد قول ابن تغرى بردى في النجوم ، والثانى هو الاقرب في رايه ايضا وهو المتداول بين الناس[2] . فايهما تصدق؟ وكيف يقع ابن تغرى بردى في هذا التناقض في كتابه ؟

وعلى كل حال بمقتل جانبك الصوفي ، وهروب ناصر الدين ابن دلغادر إلي الروم شريدا وفشل قوات سليمان بن ناصر الدين في اقتحام

١- السلوك ج ٤ ق٢ صـ ١٠٢٤ ، النجوم الزاهرة ج ١٤ صـ ٢٦٩ ، عقد الجمان صـ ٤٩٥ ط الزهراء ، نزهة النفوس ج ٣ صـ ٣٩٧ .

٢- النجوم الزاهرة ج ١٤ صـ ٢٦٩ ط الزهراء ، المنهل الصافي ج ٤ ص ٢٢٩

قيصرية ، تخلص السلطان من الد اعدائه ومنافسيه[١] . وعاد الاستقرار إلي تلك المناطق نسيبا من جديد .

وللأسف يشتم من عبارات المقريزى التشفي في برسباى لأنه ابعده عن وظائف الدولة ، وكان ينبغى له ذلك . وكان مما قاله : "..وظن انه قد امن ، فأجرى الله على الألسنة انه قد انقضت ايامه ، وزالت دولته ، فكان كذلك ... وقد قابل نعمة الله في كفاية عدوه بان تزايد عتوه ، وكثر ظلمه ، وساءت سيرته فأخذه الله اخذ وبيلا ، وعاجله بنقمته ولم يهنيه[٢] "

ولم يعجب ابن تغرى بردى هذا الاتهام . وهذا الوصف بالظلم واساءة السيرة فقال : " وما عسى الملك الاشرف كان يظلم في تلك المدة القصيرة ؟ فان خبر جانبك الصوفي ورد عليه في سابع عشر جمادى الأولى ، وابتدأ بالسلطان مرض موته من أوائل شعبان . ولزم الفراش من اليوم المذكور ... غير ان الشيخ تقى الدين المقريزى رحمة الله كان له انحرافات معروفة عنه .وهو معذور في ذلك ...لأنه كان مبعودا في الدولة لا يدنيه السلطان مع حسن محاضرته ، وحلو منادمته[٣] .."

١- سبق وان ذكرنا اثناء العرقة مه قرا ايلوك تجريد السلطان لحملة فيها ثمانية من مقدمى الالوف وحققت الكثير من المكاسب حتى بعد موت برسباى الذي تعلم به ، راجع النجوم الزاهرة ج ١٤ صـ ٢٧٠

٢- السلوك ج ٤ ق٢ صـ ١٠٢٤

٣- النجوم الزاهرة ج ١٤ صـ ٢٧٠

ولما تسلطن جقمق وعلى وجه التحديد في الخامس والعشرين من شوال سنة ٨٤٣ قدم عليه الامير ناصر الدين محمد ابن دلغادر نائب ابلستين ، وقد احتفي به السلطان حفاوة كبيرة ، فقد جهزت له الاقامات في طول طريقه ، وتلقاه عدة من اعيان الدولة ومعهم الخيول والخلع له ولكبار اعوانه من أولاده وغيرهم ، فلما وصل القاهرة . ودخل القلعة وتمثل بين يدى السلطان قبل الارض ، وخلع عليه استمراره على نيابته على عادته وانزله في بيت قريب من القلعة ،وبالغ السلطان في الاحتفال بامره ، والاعتناء به وشمله بالانعامات الكثيرة ، ولم تعجب المؤرخين المعاصرين[1] هذه المبالغة في استقباله والعطايا له ، حتى ان الامراء الكبار والصغار بما فيهم الامير الكبير قد خرجوا لاستقباله وحتى عقد له مجلس عام في ايوان القصر لأنه من سنين لم يدخل فى طاعة سلطان مصر ، وكان على عداء سافر مع الدولة ، ولذلك لما سمع بسلطنه جقمق وبحسن سيرته قدم عليه ، ليتخلص من المعاناة والتشرد والهروب المتكرر الذي لحقه نتيجة وقفته مع جانبك الصوفي وقبله.

وقد قدمت معه ابنته الخاتون زوجة جانبك الصوفي التى مات عنها ، ولها منه بنت في الثالثة من عمرها ، وقد تزوجها وحمل إليها مهرا قيمته

١- عقد الجمان صـ ٥٥١ ط الزهراء ، النجوم الزاهرة ج ١٤ صـ ٣٣٨ ، السلوك ج ٤ ق٢ صـ ١١٨٥ ، انباء الغمر ج٣ صـ ١٤٥ .

الف دينار ، وعدة كثيرة من الشفق والحرير وغيرها[١]. وذلك لترضية ، ولضمان ولاء ابن دلغادر المتمرد من سنين.

وقد خلع على ابن دلغادر خلعة السفر وسافر في ثانى عشرين ذى القعدة ، بعد ان بلغت النفقة عليه ثلاثين الف دينار . وقد انعم عليه بأشياء من الذهب والقماش والحرير والسمور والخيل المسومة والسووج المفرقة . ومثل هذا ما كان ينبغى ان يفعل به وله ، فهو مشرد ولم يجد موضعا يستقر فيه ولكنها السياسة التى تتغير و تتبدل حسب المصالح والاهواء . وان ضمنت الولاء والاستقرار والخضوع في هذه المنطقة لسلطان مصر جقمق .

وقد عادت الامور إلي العداء بعد عهد اينال ومنذ سنة ٨٥٨ بعد موت سليمان بن ناصر الدين محمد حيث تدخل محمد الفاتح في شئونها ومساعده شاه سوار في تولى امارة دلغادر سنة ٨٧١ هـ ، فاعادت الاضطرابات والمنازعات من جديد وتكررت اعتداءات شاه سوار على اطراف الحدود المصرية . فاضطر قايتباى للتعامل بحسم لضمان الاستقرار في هذه المناطق وجرد ثلاث حملات لهذا الغرض[٢] .

---

(١) انباء الغمر ج٣ صـ ١٤٦ ، النجوم الزاهرة ج ١٤ صـ ٣٣٨ ، السلوك ج ٤ ق٢ صـ ١١٨٧ ، عقد الجمان صـ ٥٥١ ط الزهراء

(٢) راجع العلاقات المصرية العثمانية (د / عبد الرازق القرموط) ص ٦٥ وما بعدها ، ٧٤ وما بعدها . مصر في عصر الجراكسة (طرخان) ص ١٢٥ – ١٣٥ .

علاقة امارة بنى رمضان بمصر :

وهذه الامارة تقع في الجنوب الشرقى لاسيا الصغرى ، وشملت املاكها منطقة سيس واطنة وبياس وشطرا من وارساق وطرسوس وغيرها ، وأول من ظهر من امرائهم الامير احمد بن رمضان الذي تولى الامارة ٧٨٠ هـ[١] .

ولم تكن علاقة بنى رمضان بالجراكسة أو قبل عصر برسباى ودية ، بل قاموا بالغارات على اطراف الدولة ونهبها وقد جردت إلي هذه الدولة اكثر من حملة أو قوة من حلب وغيرها لتأديبها واشاعة الامن والهدوء في تلك المناطق الحدودية .

الأولى : سنة ٧٨٠ هـ وكان نائب حلب الامير تمربای التمرداشى .
وانكسر العسكر الحلبى من ابراهيم بن رمضان .

الثانية : سنة ٧٨٥ هـ ونائب حلب الامير يلبغا الناصرى ، وقد كبد القوات الحلبية وغيرها خسائر جسيمة ، وان انتصرت في النهاية بمساعدة بعض التركمان القنقية وتم قتل ابراهيم ومحمد ابنا رمضان ، وحملت رأساهما إلي القلعة حيث علقتا على الطبلخاناة السلطانية[٢] .

١- معجم الانساب لزوامبأور ج ٢ ٢٣٤ ، اخبار الدول للقرمانى ص ٢٢٠

٢- راجع عقد الجمان العينى مخطوط ج ٢٤ ل ٢٩١ رقم ١٥٨٤ تاريخ ، السلوك ج ٤ ق٢ صـ ٥٠٨ ، المنهل ج١ ص ٢٨٠

وقد دام احمد بن رمضان على العصيان مدة سنين إلي أن دخل تحت طاعة الناصر فرج بن برقوق ، وقدم إلي الديار المصرية سنة ٨١٣ هـ وتزوج السلطان الملك ناصر بابنته .. واقام ابن رمضان بالقاهرة مدة يسيرة وخلع عليه بالأمرة ، وتوجه إلي بلاده. واقام به إلي ان توفي سنة ٨١٩ هـ[١] .

وكان من اثر هذه العلاقة الودية انه حاصر طرسوس مدة سبعة اشهر حتى اخذها عنوة في محرم سنة ٨١٨ هـ ، وخطب فيها للسلطان المؤيد شيخ ، واعلم نائب حلب بذلك[٢] ولما خرج السلطان المؤيد شيخ بحملته سنة ٨٢٠ هـ لتأديب الامراء التركمان الخارجين على الطاعة وبخاصة امارة دلغادر . وفد عليه ابراهيم بن رمضان وابن عمه واكثر التركمان الأوجقية ، وقدمت معهم ام ابراهيم بن رمضان وأولاده الصغار ، فاكرمهم السلطان ، وخلع عليهم وانفق فيهم[٣] .

ولكن احداث ٨٢١ هـ تشير إلي انضمام ابراهيم بن رمضان إلى بن قرمان وقد هجما على طرسوس فارسل النائب شاهين إليدكارى

١- المنهل الصافي ج ١ ص ٢٨١ الذي يذكر علاقة ابن رمضان بوالده الامير تغرى بردى نائب حلب . وانه فر إليه اثناء خلافه مع فرج ومكث عنده سنة اكرمه فيها ابن رمضان اكراما زائدا . واجرى عليه الرواتب العالية وقدم له التقادم السنية ، حتى وصل كتاب الامان من الناصر فرج . وربما كان لتغرى بردى دوره في تحسين العلاقة بين الطرفين

٢- عقد الجمان صـ ٢٤٨

٣- عقد الجمان صـ ٢٨٨

يطلب النجدة من السلطان فارسل إلى ولده حمزة بالاستقرار في نيابة اذنه عوضا عن ابيه . ولذلك قدمت ام ابراهيم ابن رمضان إلي السلطان في ذى الحجة ٨٢١ هـ تستعطف السلطان على ولدها ، فامر باعتقالها . فاعتقلت[١] . وامر بتجهيز حملة ابنه ابراهيم إلي بلاد ابن قرمان وابراهيم بن رمضان لفسادهم في البلاد ، وقد ادت الحملة مهمتها[٢] .

وفي عهد برسباى لم يظهر ولائهم الدائم ففي ٨٢٨ هـ توجهت عساكر حلب لقتال ابن رمضان لقتاله تركمان ازر الموالية للسلطان . وقد أمد السلطان عساكر حلب بعساكر الشام [٣].

وقد هرب الامير ابراهيم بن رمضان ، والتجأ إلي ابراهيم ابن قرمان الذي ارسل إليه السلطان الامير شادى بك امير عشرة ورأس نوبة صغير ليصلح بين ابناء قرمان (ابراهيم و عيسي) ويسلمه ابن رمضان وبعد ان ادى مهمته سلمه ابراهيم بن قرمان ابراهيم بن رمضان الذي قدم به إلي القاهرة في اسوأ حال من قيد ، وفي ٢٧ من ذى القعدة سنة ٨٣٠ هـ حيث احتاط عليه ومعه حريمه وعياله . واعتقل في برج من ابراج القلعة[٤] وفي محرم ٨٣١ هـ قدم الأمير محمد من أولاد رمضان ،

---

[١] راجع عقد الجمان صـ ٣٣٠- ٣٣٣ ط الزهراء

[٢] نفسه ص ٣٤٦ - ٣٤٨ .

[٣] عقد الجمان صـ ٢٥٨ ط الزهراء ، نزهة النفوس ج ٣ صـ ٧٥

(٤) نفسه ص ٣١٧- ٣٢٧ ، السلوك ج ٤ ق٢ صـ ٧٥١ ، نزهة النفوس ج ٣ صـ ١٢٠

ومعه جماعة من حاشيته وادعى على إبراهيم المحبوس انه قتل عميه وفلانا وفلانا من اخواته وأولادهم ، فأقام جماعة شهدوا بمضمون ما ادعى به ، فلم يقبل الشرع شهادتهم لمانع شرعى عن ذلك[١] .

وفي نهاية ليلة الخميس العشرين وقيل الحادى والعشرين من صفر ٨٣١ هـ قضى الله امره في ابراهيم المذكور ، وفي صبيحة غده سافر محمد بن رمضان إلي بلاده التى تولاها ، وخلع عليه بها وفي الثانى عشر من صفر ، خلع عليه خلعة سنية ، ليمتد نفوذه على ما كان يحكمه ابراهيم المقتول ، بالاضافة إلي مناطق اخرى من مناطق التركمان . فاصبح مواليا لسلطان مصر حتى انه قدم إلي القاهرة في جمادى الأولى سنة ٨٣٢ هـ .

ولكن رغم هذا لم يحافظ محمد بن رمضان على هذا الولاء ففي العاشر من صفر سنة ٨٣٩ هـ جاء قاصد من نائب الشام واخبر أن نائب حلب ارسله إليه يعلمه ان الامير ابراهيم بن قرمان جمع عسكرا ، وانضم إليه تركمان ابن رمضان ، وقصدوا ناصر الدين محمد بن دلغادر ، وانهم انتصروا عليه ، وكسروه كسره بشعة ، وقتل منهم جماعة ، وان الامير ابراهيم توجه إلي قيسارية واخذها بقلعتها ، واستقرت بيده[٢] .

١- عقد الجمان صـ ٣٢٧ ط الزهراء ، نزهة النفوس ج ٣ صـ ١٢٧

٢- عقد الجمان صـ ٤٦٥ ط الزهراء للأعلام العربي .

وقد ظلت علاقة الود قائمة في عهد جقمق ، فكانوا من تركمان الطاعة . الذين يوالون الدولة المصرية ولذلك تصدى لتغرى برمش (ورمش) نائب حلب حين خرج على سلطان مصر . حتى انكسر منهزما عند تل السلطان . وحتى عندما التجأ إلي جماعة من التراكمين – التركمان – اخذوا كل ما معه ، ومسكوه ودخلوا به حلب في باشة وزنخير – أى قيد في رجليه ويديه وسلسلة في رقبته – وكان معه جماعة من مناصيره و قد فرح السلطان بهذه الأخبار[1] .

أ . د /عبد الرازق الطنطاوى القرموط

١- نفسه ص ٥٣١ – ٥٣٢ حوادث ٨٤٢ هـ .